فيها فأمر باتلافها تمويهاً واشاع انهُ احرق الخبيثة بأسرها اخفاءً لشأنها فلم ينكر ذلك عليهِ وذاع عنهُ نظراً لما كان معروفاً بهِ من بغضهِ اللغة السريانية ومقتهِ للمتكلمين بها

الجزء الرابع

﴿ بيرود ومكتبة المطران غريغوريوس عطا ﴾

بيرود

هي بُليدة تابعة لقضاء النبك موقعها في الشمال الشرقي من معلولا وبينهما مسير اربع ساعات وهي انزه بلاد القلمون وفيها المياه الجارية بين الرياض والبساتين والنسائم العطرة بروائح الزهور والرياحين كما ذكر في وصفها الشيخ عبد الغني النابلسي في رحلتهِ الحقيقة والمجاز التي رحلها سنة ١١٠٥ للهجرة . وفي زعمهِ ان اسمها مشتق من البرد جرياً على عادة العرب من طلب الجناس في اكثر توجيهاتهم اللغوية . وهو قولهُ في بيتين

جئنا الى قريةٍ يقال لها ... بيرود ذات الزهور والوردِ

وبردها زائدٌ ولا عجبٌ ... بيرود مشتقةٌ من البردِ

وحكى ياقوت في معجم البلدان انها سُميّت كذلك من عين ماء عجيبة باردة تجري تحت الارض الى الموضع المعروف بالنبك . وفي كلا الاشتقاقين كما لايخفى تكلف ظاهر لان اسم بيرود ورد بعينهِ مع اسم معلولا في احدى

الكتابات القديمة مما ينفي عنهُ كل اصل عربي . وقد دعاها بهِ بطلماوس في جغرافيته وذكر انها كانت خاضعةً للاذقية لبنان

والروم يدعونها ايضاً بمفيلية . ويؤخذ من رواية الشماس بولس الحلبي انها انما دُعيت عندهم بهذا الاسم لورودهِ عنها في موضع زعموا انها عُيّنت بهِ في التوراة المقدسة (كذا) وهذا نص كلامهِ بالحرف في تأليفهِ رحلة البطريرك مكاريوس الى البلاد المسيحية قال « ومن قارا فارقناهم (اي نفراً من الحلبيين) وتوجهنا نحو بيرود وزرنا كنائسها المعظمة في الوجود وقلالي القديس مار قونن البستاني وهم نقر في الجبل اعني ذلك الذي حبس الشياطين في الجدار وبساتينها كثيرة مشهورة وفواكهها لذيذة غزيرة كيف لا نمدحها وقد جاءَ في التوراة المقدسة حيث يقول وكبساتين بمفيلية لان هذا كان اسمها قديماً منقول » . وقد عدَّها كذلك بهذا الاسم في جملة اسقفيات مطرانية دمشق في كتابهِ الآخر تاريخ البطاركة الانطاكيين نقلاً عن نسخة رومية قديمة وذكر من اساقفتها جناديوس في المجمع الاول اي مجمع نيقية . واحصى منهم لوكيان في كتاب الشرق المسيحي اوسابيوس وهو الذي وقَّع عنهُ ثاودوروس مطران دمشق في الجلسة السادسة من المجمع الخلقيدوني . وتوما وكان من اصحاب ساويروس فطردهُ الملك يوستينيوس من كرسيهِ سنة ٥١٨ فيما روى البطريرك ديونيسيوس التلمحري في تاريخهِ . وايليا وكان في عهد بطرس الثاني مطران دمشق المُستشهَد سنة ٧٤٣ للميلاد (المجلد الثاني ص ٨٤٦) ومنهم ايضاً في ما وقفت عليهِ يواكيم وكان في جملة الاساقفة الذين حضروا سنة ١٤٥١ تنصيب مرقص اسقف صيدنايا بطريركاً

على انطاكية . واثناسيوس الديرعطاني رسمهُ البطريرك مكاريوس الحلبي سنة ١٦٤٨ اسقفاً عليها وعلى معلولا كما نقلنا ذلك في ما سلف . وجرمانوس وهو احد الذين عقدوا البطريركية في دمشق سنة ١٦٧٣ للخوري قسطنطين حفيد البطريرك مكاريوس المشار اليهِ

ولما تميزت طائفتا الروم أُلحقت ببرود فيما يظهر بأسقفية قارة عند الكاثوليك وكانت هذه تضمّ احياناً الى مطرانية حمص او تُفرز عنها كما اتفق كلا الامرين سنة ١٧٦١ حين وليها السيد غريغوريوس الحداد من قِبَل البطريرك المعزول اثناسيوس جوهر ونُصب عليها وعلى حمص السيد يوسف سفر من قِبَل البطريرك المُنتخَب مكسيموس الحكيم خلافاً لما ذكرهُ في هذا الشأن المطران عطا والمختصر المطبوع . وقد شاهدت توقيع الاول في بعض كتابات خُطت في السنة نفسها في نزاع البطريركين وكان نقش ختمهِ « مطران قارة وما يليها » كما هو مثبت في نسخة انتخاب السيد اثناسيوس جوهر للمرة الثانية سنة ١٧٦٥ . وقرأت في فرائض الراهبات الشويريات المطبوعة في رومة سنة ١٧٦٤ براءة للبابا اكليمنضوس الثالث عشر بتاريخ ٢٢ آب من السنة نفسها موجّهة الى الاسقف الثاني السيد يوسف سفر وفيها يدعوهُ « كير يوسف مطران قارا » فقط . ولم تُفصل الخصومة بين الاسقفين على وجهٍ صريح الا بعد خضوع السيد اثناسيوس جوهر وحزبهِ للبطريرك ثاودوسيوس الدهان سنة ١٧٦٨ . فاستقل الاول بقارة وببرود وما يليهما وبقيت في ولايتهِ الى ان توفي في دير المخلص سنة ١٧٩٥ فرُدّت حينئذٍ ابرشيتهُ الى الاسقف الثاني يوسف سفر مطران

حمص وبعد ان اقام مدةً في دير صغير ابتناهُ لنفسهِ في قرية رأس بعلبك لتضييق الروم عليهِ في حمص وجوارها سافر الى بلاد فارس والهند فيما قيل وعاد منها الى زحلة حيث استأثر الله بهِ سنة ١٨١٠ ودفن في دير القديس الياس للشويريين

وبعد وفاتهِ أُسندت رعاية كنائسهِ كلها الى السيد اكليمنضوس المطران اسقف بعلبك وكان بين أُسرتهِ وبين بني الحرفوش حكام المدينة يومئذٍ عداوة لم يستطع من اجلها البقاء طويلاً في بعلبك فحضر الى بيرود وقضى فيها اكثر ايامهِ الى ان مات مطعوناً سنة ١٨٢٧ ولهُ من العمر قريب من ٧٥ سنةً . وخلفهُ على كلتا الابرشيتين السيد اثناسيوس عُبيد وهو الذي شهد مجمع عين تراز سنة ١٨٣٥ واثبت اسمهُ فيهِ « اثناسيوس مطران بعلبك وقارة » ثم استردَّ منهُ البطريرك مكسيموس مظلوم حمص ونواحيها وتنزَّل هو عن سائر الابرشية فوكَل البطريرك تدبيرها الى الخوري ميخائيل عطا نائبهِ في دمشق وجعل النظر عليهِ للسيد باسيليوس شاهيات اسقف الفرزل وزحلة والبقاع وما عتَّم ان استقلَّ بادارتها وكان يتعهدها بالزيارة المرة بعد المرة الى ان اقيم مطراناً على حمص وحماة في ٢٠ شباط سنة ١٨٤٩ شرقية فاستولى على بيرود وسائر القرى الى صيدنايا واصبحت هذه الكنائس كلها ابرشيةً واحدةً في عهدتهِ

ويتضح من كلام لهُ انهُ كان بادئَ بدء قد جعل اقامتهُ في حمص حيث كرسيهُ الحقيقي ولكنهُ لم يلبث ان تبرَّم بها وباهلها لعدم مجاراتهم لهُ على اهوائهِ فتحوَّل عنها الى بيرود لطيب هوائها وحسن معيشتها وغلبة

السذاجة والغفلة حينئذٍ على اكثر بنيها واقام بها سائر حياته الى ان قضى نحبهُ في دمشق في ٣ كانون الاول سنة ١٨٩٩ بعد ولاية نيف وخمسين سنةً انفق معظم ايامها في جمع المال والاذّخار لاهلهِ دون ان يبالي بشيء مما يعود على كنائسهِ ورعاياهُ بالخير والنجاح . وقد شهد قبل وفاتهِ افتتاح مدرسة حسنة للذكور والاناث سعى في تشييدها ابناء طائفته في بيرود وفوّضوا ادارتها للآباء اليسوعيين وراهبات قلبَي يسوع ومريم وعليها يتوقف اليوم صلاح الشبيبة وزوال كثير من الاضرار والعثرات التي نجمت بين القوم وطما بها الشر والبلاء لسوء اهمال المطران وتقصيرهِ القبيح في تقويم أود الاخلاق وتبديد ظلمات الغباوة والجهل

وفي بيرود على ما ذكرهُ ايضاً في كتابهِ حوض الجداول ستة آلاف نفس الثلثان منهم مسلمون والثلث الباقي روم ملكيون بينهم عدد قليل من الروم الارثودكس والسريان الكاثوليك غير انهُ لما خلفهُ في ٢١ تشرين الثاني سنة ١٩٠١ المطران فلابيانوس الكفوري على غير رضًى من اهل بيرود بهِ لاستبداد البطريرك بطرس الرابع بتنصيبهِ لغير مزيةٍ توجب ايثارهُ وتفضيلهُ لجّ داعي الغضب والنفار بفريق منهم فانحازوا الى الملة الارثودكسية وتبعهم آخرون اضاعهم المطران بقلة حكمتهِ وعدم نزاهتهِ فدخل بذلك الشقاق هذه الكنيسة بعد ان ثبتت طويلاً على اتحادها بين كل تلك الاضطهادات والمحن التي ابتليت بها في مبادئ القرنين الاخيرين

الكنائس والمعابد

كان في بيروت كما في صيدنايا ومعلولا على ما سبق من وصفهما عدة كنائس ومعابد تشهد بتمكن النصرانية فيها . غير ان اكثرها قد تحوّل بعد الفتح الى جوامع للمسلمين او استولى عليه الخراب والبلى كما تمّ باغلب كنائس الشام ايضاً . فمن الاولى ١ً كنيسة القديس نقولاوس وهي الجامع الاكبر لهذا العهد . ٢ً الياس النبي وهي اليوم زاوية للمسلمين بيد عبد القادر قنوع . ٣ً القديس جاورجيوس في حارة القاعة وهي زاوية ايضاً ملك مصطفى الخطيب ولكنها غير الكنيسة الاخرى المنسوبة الى القديس نفسه الآتي ذكرها . ٤ً زنوبية وكانت تعرف بمقام زنّوب او زينب وقد أُضيف مكانها منذ ثلاث او اربع سنوات الى المدرسة الاسلامية

ومن الثانية ١ً معبد القديس سابا عند سكفتا خارج البلد وهو اليوم قاع صفصف . ٢ً كنيسة القديس جاورجيوس وكانت قريبة من الكنيسة الكبرى ثم هُدمت ونُقلت بعض احجارها اليها كما سيجيء . ٣ً كنيسة السيدة شرقيّ بيروت بين البساتين وكانت تقام فيها الصلوات قبلاً فيما بلغني عن الخواجا جرجس زكا احد وجهائهم من ان جدهُ كان يصلي فيها ثم هُجرت ولم يبقَ ماثلاً منها الا الجدار الشرقيّ

واما الكنائس العامرة فهي ١ً الكنيسة الكبرى المشهورة باسم القديسين قسطنطين وهيلانة . ٢ً كنيسة القديس استفانوس وهي بيد الروم الارثوذكس انفردوا بها منذ سنة ١٨٣٤ فيما ذكرهُ المطران وكانت

خربةً او متداعيةً الى الخراب فرمموها ٣ كنيسة القديسين قزما وداميانوس والقوم هنالك يدعونها مار قزمان وهي في جنوبي مدرسة الروم الكاثوليك . واعظم هذه الكنائس شانًا واوسعها رفعةً واجلها بنيانًا كنيسة القديسين قسطنطين وهيلانة الكبرى ولما دخلناها تفرست في ارضها وسمآئها فرأيت من اتساعها وارتفاعها وجمال صحونها ما عجبت لهُ ولكني عاينت من فقرها وسقط متاعها وحقارة زينتها ما نغّص ذلك العجب . ويظهر ان مكانها كان قبلاً هيكلاً للشمس لانها غير موجهة الى الشرق تمامًا كسائر كنائس ذلك العهد ولكنها منحرفة الى الشمال قليلاً . ومما يشهد بذلك انهُ كان ورآء الهيكل فيها في صدر الجدار ثلاث نوافذ كبيرة سُدَّت الاثنتان منها وصُغّرت الوسطى وهي التي تُرى اليوم فاذا كان الحادي والعشرون من شهر حزيران واشرقت الشمس نفذ شعاعها منها توًّا الى منتصف الحائط الغربي فوق الباب . وهي مبنية بحجارة ضخمة يُشاهد بينها ما هو قديم ليس من نمَطها فضلاً عن الاختلاف الظاهر بين اقسام جدرانها فان البنآء في اسفلها اشد استحكامًا منهُ في اعلاها مما يدل على ان بعض هذه الجدران كان قد تهدم جانب منها ثم أُعيد تشييدهُ من انقاض الاخربة المجاورة

ومن هذه البقايا المستعارة حجر ضخم في الحائط الغربي يعلو عن الارض نحو ثلاثة امتار عليهِ كتابة باللاتينية مقلوبة تبتدئ من اسفلهِ وتنتهي في اعلاهُ يشبه ان يكون مجموعها IMP. C. CAESAR غير انهُ لم يبقَ ظاهرًا منهُ الا الكلمة الاخيرة وحدها واما ما قبلها فلا يكاد يُقرأ لتحطم احرفهِ وخفآئها وابين ما يُرى هذا التجديد في حائطها الغربي فانهُ في اوائل هذا القرن

كان مهدوماً الى الحضيض وكانت الكنيسة خاويةً معطلةً ليس فيها الا ثلاثة جدران والقبة فقط وقد اتخذها الحاكة مألفاً ينتابونهُ ليسدوا فيهِ اسدية الخام البلدي وربما دفن فيها بعضهم موتاهم ايضاً . فلما مرّ بهم ابرهيم باشا في حملتهِ المصرية سنة ١٨٣٤ استأذنوهُ في بنآئها واصلاحها وخاطبهُ في هذا المعنى امير اللواء يوحنا بك بحري المشهور فاجاب ملتمسهم ووهب لهم ايضاً ما احدق بالكنيسة من الارض البراح فشرعوا في تجديد ما سقط منها بعد ان هدموا كنيسة القديسين جاورجيوس المجاورة واقاموا الحائط الغربي واحدثوا بجانبيهِ مكان النسآء وهو الذي ابطلهُ المطران عطا ورفعهُ الى موضعهِ اليوم على ما سبقت الاشارة الى ذلك في كلامنا عن الشعريات فيما وصفناهُ من كنائس معلولا

وهناك ايضاً صفيحة اخرى من الحجر الابيض الصلب تشاهد اليوم مقلوبة على مائدة الهيكل الاوسط وكانت تكون حقاً ابدع زينة وانفس طرفة تتحلى بها الكنيسة وتعتاض بجمالها عن قبح عريها وقلة زخارفها لو انهُ قُدِّر لها في اوانها من يعرف قيمتها ويحسن صيانتها . وهي صورة قديمة العهد ناتئة الرسوم تمثل الميلاد الشريف اجمل تمثيل وُجدت فيما قيل على مائدة هيكل كنيسة القديس جاورجيوس حين تولى هدمها اهل يبرود على ما اشرنا اليهِ سابقاً . فتناولها احدهم البنّآء جرجس المالح وشوّه بعض رسومها توهماً منهُ انها رسوم اوثان ولم يبقِ منها الا صورة المذود وحدهُ عليهِ الطفل في القمُط وفوقهُ نجم المجوس وهي التي تُرى اليوم

وفي اعلى هذه الصفيحة كتابة باليونانية هذا نصها

† ΕΓΝΩ ΒΟΥΣ ΤΟΝ ΚΤΗΣΑΜΕΝΟΝ Η ΑΓΙΑ ΜΑΡΙΑ
ΚΑΙ ΟΝΟΣ ΤΗΝ ΦΑΤΝΗΝ ΤΟΥ ΚΥ ΑΥΤΟΥ

وتعريبها عرف الثور قانيهُ والحمار معلف صاحبهِ وهي الآية الثالثة من الفصل الاول من نبوءة اشعيا . والحرفان ΚΥ مقتطعان من لفظة ΚΥΡΙΟΥ واما الكلمتان اللتان الى يمين الصورة فهما القديسة مريم . ولا ريب ان الرسم المهشم تحتهما هو رسم المذرآء لورود اسمها فوقهُ كما ان الصورتين الباقيتين المهشمتين ايضاً الى جانبهِ كانتا في الارجح تمثّلان القديس يوسف والمجوس والبقر حول الطفل كما يشير الى ذلك نص الآية المستشهد بها وحسبما يقتضيهِ ايضاً مجموع هذه الرسوم التي انما أُريد بها تمثيل هيئة الميلاد بتمامها. وعرض هذا الحجر تسعون سنتيمتراً وثخانتهُ نيف وخمسة سنتيمترات . واما طولهُ فيبلغ الآن متراً وخمسة وخمسين ولكن اذا اعتُبر ما تحطم من جانبهِ الايسر وقوبل بينهُ وبين الطرف الصحيح من الجانب الايمن يكون طولهُ كاملاً متراً وثمانين اي ضعفي عرضهِ بالسواء

وبعد ان انتهيت من التنقيب في الهيكل اقبلت اطوف في الكنيسة التمس ما فيها من الصور والرسوم لعلي اعثر بينها على قديم يكون ذا خطر وقيمة . فما كان اشد ذهولي حين وجدتها كلها من الرذل القبيح الذي تنبو عنهُ العين ولا يُقوَّم بفلس خلا صورتين للمطران الاولى منهما فوق الباب اهديت لهُ في يوبيلهِ والثانية الى جانبهِ في وسط الكنيسة تمثلهُ وهو شاب اول ما عُقدت لهُ المطرانية . ولا ادري كيف فاتهُ ان يعزّزهما بثالثة تشخصهُ وهو رضيع في القُمُط ليجمع اطوار الحياة الثلاثة ولا يكون قد حرم بيت الله

مشهداً منها . وقد راجعت ما تهيأت مراجعتهُ من الكتب الطقسية لانظر هل لهذه العادة الغريبة اصل في الكنيسة اليونانية فلم اقف فيها على عين لها ولا اثر بل وجدت بين احكام المجامع ما ينهى عنها ويقضي بتحريمها . وهو قول الآباء في مجمع نيقية الثاني المتئم سنة ٧٨٦ بعد ان اثبتوا عادة تعظيم الصليب الكريم وبقايا القديسين « اننا نكرّم ونوقّر صور السيد المسيح ووالدته القديسة والملائكة الذين مع انهم ارواح قد ظهروا للابرار في هيئة بشر . وصورَ الرسل والانبياء والشهداء وسائر القديسين لان رسومهم تمثّل لنا تذكارهم وتكون لنا اداةً على الاقتداء بقداستهم »[1]

وورد لهم ايضاً مثل ذلك في قول آخر صرّحوا في كليهما ان نصب مثل هذه الصور في الكنائس لا يجوز الاّ لان النظر اليها يذكّر بفضائل اصحابها ويبعث في النفس رغبةً في التشبُّه بهم وسلوك مثل منهاجهم . ومن ثَمَّ كل ميتٍ لا يكون مثبتاً في الكنيسة محصًى بين قديسيها يمتنع بتاتاً عرض صورته في البيع والمعابد كما نصَّ على ذلك مجمع الطقوس الروماني بتاريخ ٢٤ اذار سنة ١٨٦٠ لان النظر اليها لا يحرض على برّ ولا يُغري بقداسة بل يمثّل من سيرته ما قد يسوء تذكارهُ ولا تحمد آثارهُ . واشد منها تحريماً صورة الحيّ الذي لا يبرح ما دام حياً ومهما كان برّاً تقياً عرضةً للتقلب والتحول ورهينةً للآثام والمعاصي . ولهذا تتابعت المجامع على منع عرض مثل هذه الصور التي ليس لها ادنى تعلق بالعبادات ونصّت مع مجمع نيقية على حصر الجائز وحدهُ في نطاقٍ لا يتعداهُ

---

(١) طالع كتاب Les Conciles par Mgr. Paul Guérin, t. II p. 47

ومن الكنائس التي دخل فيها ايضاً شبه هذه العادة الكنيسةُ الكبرى في دمشق فان ابناءها بعد وفاة بطريركهم الطيب الذكر السيد مكسيموس مظلوم عمدوا الى صورته فنصبوها فيها لارتياحهم الى النظر اليها وتذكر افضال صاحبها ومع ان في ذلك من الشكر وقضاء واجب الاحسان ما يحق لهذا الرجل الذي كان بحيث اذا جاز ادخال هذه البدعة لاحد من رجال الكهنوت فلهُ وحدهُ لا يسلم مثل هذا النصب من الطعن والانكار لمناقضته احكام المجامع وعدم تعلقه بشيء من رسوم العبادة . ولما طال العهد به ومرّ على الصورة نحو من خمس وثلاثين سنة في مكانها والف الناس رؤيتها فيه غاب على اعتقادهم ان مثل هذا التعليق جائز في الكنائس فحين توفي المرحوم غريغوريوس يوسف بادر قوم الى عرض صورته ايضاً الى جانب صورة سلفه ووضعوهما عن يمين الباب ويساره حيث لا تزالان الى اليوم . وانما موضع مثل هذه الصور في نحو الدار البطريركية لا في الكنيسة موضع العبادة والسجود لله . والاّ فلو احبّت غداً كل ابرشية ان تتسلى بعرض رسوم اساقفتها وبطاركتها في كنائسها لم تلبث هذه الرسوم ان تزاحم بالمناكب صور القديسين والانبياء وتتحول بها بعض هذه البيع الى مغاور تفتقر يوماً الى نزول المسيح ليصرخ فيها ثانيةً وبيده السوط «بيتي بيت صلاة يُدعى»

واقبح من هذا ما احدثهُ البطريرك بطرس الجريجيري في الكنيسة نفسها من رفع صورة القديس باسيليوس التي كانت في صدر كرسيّه البطريركي ووضع رسمه في مكانها . ولا بأس ان نُلِمّ هنا قليلاً بذكر عادة الكنيسة اليونانية في مثل هذه الكراسي الخبرية والرسوم التي يجب ان

تُتخذ فيها ليُعلم مقدار الخطإ الذي خطئهُ البطريرك المشار اليهِ بتعليقه المنكر

لما انتصر قسطنطين الكبير انتصارهُ المشهور وعزَّت بظفرهِ النصرانية في الشرق والغرب معاً برزت الكنيسة من مكمنها في دياميس الموتى والخفآء الى عالم الظهور والاحيآء فاتَّخذت لها الابنية الفخيمة والانشآءات الجسيمة وانتُدب لتزيينها وزخرفتها حذَّاق ارباب الصناعات ومهرة المصورين فاحتفلوا بها اي احتفال ومثَّلوا فيها اجمل الرسوم وابدع الصور ولا سيما في حنيَّتها وهي التي تُرى على شكل نصف دائرة وراآء الهيكل الاكبر فانها كانت قطب هذه الزخارف والرسوم لانها كانت اول ما يتَّجه اليه النظر في الكنيسة قبل اتخاذ القنسطاس حسبما نبَّه على ذلك اندرّاي بيّراتّاي في كتابه عن الآثار النصرانية . قال وفي وسطها كان يوضع قبلاً العرش الاسقفي وهو المعروف بالكاتدرا العليا وعن كلا جانبيهِ مقاعد للكهنة المرتسمين وفي ما يليها كراسي الشمامسة قريباً من الهيكل[1] . ولما كان هذا العرش يمثّل عرش المسيح في السمآء كما ذكر ايضاً سمعان التسالونيكي في كتابهِ « الهيكل المقدس وتقديسهِ »[2] كانت الرسوم التي تعلوهُ في صدر الحنيَّة تمثل دائماً صور المسيح متشحاً بجلباب الظفر تارةً وهو مستوٍ على عرش مرصّع بانواع الحجارة الكريمة وتاراتٍ اكثر وهو قائم على جبل صهيون او ماثلٌ على السحاب باسطاً يمينهُ يبارك بها وقابضاً بيسراهُ على كتاب الشريعة الجديدة وفوق رأسهِ يدٌ خارجة من الغمام وهي يد الاب ممسكة اكليل الجزآء الابدي . والى جانبهِ حمامة متألقة هي رمز الروح القدس . وعن يمين هذه الاقانيم

(١) L'Archéologie Chrétienne par andré Pératé p. 176

(٢) Migne : Patrologie Grecque. t. CLV ch. 135 col. 346

الثلاثة ويسارها القديسان بطرس وبولس ومن حولهما في الاعم الاغلب بقية الرسل وغيرهم من القديسين والقديسات الى ما شاكل ذلك من تتمة امثال هذه الصور والمشاهد التي يطول تعدادها . وقد نقل كثيراً منها اندراي بيراتاي في كتابهِ السالف الذكر ووصفها وصفاً مدققاً فليطالعهُ من يشاء (انظر مثلاً ص ١٩٦ و ١٩٧ و ٢٠٩ و ٢٤٧ و ٢٥١ و ٢٥٥)

ثم اختلفت هذه الرسوم على تمادي الاعصار وتعاقب الدول ولكنها لم تخلُ قطّ من تمثيل صورة المسيح خاصة على اشكال شتى وهيئات متنوعة لما قدّمناهُ من ان الكاتدرا هي عنوان عرشهِ في السماء فلذلك كانت صورتهُ الكريمة ترسم دائماً فوقها . وقد استمرت هذه العادة محفوظة حتى اوائل القرن السابع عشر حينما قدم غُوار الى الديار الشرقية ووصف ما رآهُ منها رأي العين في كتابهِ الانخولوجيون المشهور وهذا نص بعض ما رواهُ فيهِ قال

وبياناً لما اوردناهُ آنفاً نقول ان اليونان اعتادوا ان يصوّروا في اعلى الحنيَّة او يمثّلوا فيها بالفسيفساء صورة المسيح وهو يرسم اسرار الذبح الالهية أو يبارك الشعب القادم ليصلي في الهيكل . ومن تحتهِ قليلاً على هذا النحو جمهور الرسل القديسين (كما يشاهد مثال ذلك في كنائس رومية الملكية القديمة) وكثيراً ما كانوا ايضاً يصوّرون بأزهى الالوان وابدعها اعظم احبار كنيستهم نظير ديونيسيوس وباسيليوس وغريغوريوس ويوحنا فم الذهب أو غيرهم من الكهنة القديسين وهم متشّحون بملابسهم الكهنوتية يُحدقون بالمسيح تارةً وهو يقدّم نفسهُ على المذبح وطوراً وهو جالس فيما بينهم جلوس

الحبر الاعظم على عرشه ... (ص ١٦)

وذكر مثل ذلك ايضاً غيرهُ من كتبة الطقوس والآثار النصرانية فلا حاجة الى الاطالة بنقله اذ كان في ما قدمناهُ منها البيان الكافي والشاهد المقنع . وقد اجمعوا كلهم على ان مكان الكاتدرا العليا كان في صدر الحنيّة ورآء الهيكل الاوسط وان الكاتدرا نفسها لم يكن فيها صورةٌ ولا رسمٌ ما وانما كانت الصور والرسوم في ما يعلوها من قبة الحنيّة وهي صورة المسيح فوق العرش الاسقفي وصور الرسل أو غيرهم من القديسين احياناً فوق مقاعد الكهنة . ثم لما بطلت هذه الرسوم واتُّخذ القنسطاس انتقل مكانها الى الكاتدرا نفسها وصار يُمثَّل فيها ما وسع تمثيلهُ من صور الحنيّة . وربما اقتُصر منها على صورة المسيح وحدهُ دلالةً على ان الكاتدرا لم تبرح كما كانت دائماً عنوان عرشه في السماء حسبما قدمناهُ آنفاً وكما يؤيدهُ ايضاً الحفلة المنسوبة اليها الباقية الى اليوم في الطقس اليوناني . وهي ان الاسقف بعد تلاوة التريصاجيون في القداديس الحبرية يتّجه مع حاشيته الى الكاتدرا « والكاهن يقول وهو ذاهب مبارك الآتي باسم الرب والشماس بارك يا سيد هذه الكاتدرا العليا » (الاخولوجيون الكبير طبعة ڤينا ص ١٢١) غير ان بعض الكنائس جعلت تضع احياناً في كراسيّها الحبرية بدلاً من صورة المسيح صور بعض مشاهير آباء الكنيسة اليونانية كما تقدمت الاشارة اليه من كلام غوار . وانما تساهلت في مثل هذا الوضع مع عدم جوازه في الارجح الاّ اذا صحب هذه الصور صورة المسيح لان الفُسحة المفروزة لهذه الرسوم في الكراسي لم تكن تتسع لها كلها وأن القديس

المصوّر كذلك كان يكون في الغالب سمي الاسقف أو صاحب كرسيهِ أو شفيع الكنيسة . وبهذا الاعتبار تسامحت بعض البيع في الاكتفاء بصورتهِ كما نبَّه على ذلك ايضاً اندراي بيراتاي في كتابهِ الآنف الذكر حيث قال « قد غلب على كل قطرٍ وكل مدينةٍ حب تعظيم احد القديسين ولذلك يؤثر اهلهُ خاصةً تمثيل صورتهِ بينهم » (ص٦٨٧) وقد اشار ايضاً الاخولوجيون الكبير الى مثل هذا الاصطلاح حيث قال «يبخّر الشماس اولاً ايقونة قديس الدير فوق كرسي الرئيس (طبعة ڤينا ص ٢٦)

وكثير من هذه الاقوال لا يُراد بهِ الكاتدرا العليا خاصةً ولكن يتناول ايضاً عرشاً آخر كان يتبوَّأهُ الملك قديماً حين حضورهِ الى الكنيسة وهو الذي يُرى اليوم في الخورص ويجلس عليهِ الاسقف عادةً في عامة الحفلات وحكمهُ حكم الكاتدرا نفسها خلا ان هذه مختصة بالاسقف وحدهُ لا يُباح لغيرهِ ان يعلوها ابداً لكونها كرسيَّ الاصلي وذاك يجوز لنائبهِ في غيابهِ ان يجلس عليهِ بعد استئذانهِ . وهو نظيرها معدود كمثال سُدّة المسيح فيجب من ثَمَّ فيهِ أو يمتنع من الصور والرسوم ما يجب أو يمتنع فيها . ولذلك يتحتم تبخيرهُ في اوقات معلومة في الصلاة تعظيماً للممثَّل فيهِ كما تقدم شاهدهُ قريباً من الاخولوجيون . ومما يدل ايضاً على حرمتهِ وجلالة قدرهِ قول الكتاب نفسهِ (ص ١٤ من الطبعة المذكورة) « ثم يذهب الشماس ويبخر الايقونة المقدسة التي فوق كرسي الرئيس » وفي تقبيدهِ الايقونة بالمقدسة شاهد آخر على امتناع تعليق ما يكون لغير قديس فيهِ فضلاً عما سبق من شواهد تحريم مثل هذا التعليق في صدر كلامنا عن صور الموتى

والاحياء في الكنائس

فاذا ثبت ذلك كلهُ كان من اعجب العجب إقدام غبطته على رفع صورة القديس باسيليوس من كرسيه البطريركي واستبدالها برسمه الشخصي الذي عنَّ لخاطره نصبهُ في الكرسيَّين معاً في حين ان كليهما صفة عرش المسيح ومبآءة صورته الكريمة وصور اوليآئه القديسين كما اتضح جلياً مما سبق. وانما كان الاجدر به اذ لم يشأ ابقآء القديس المذكور في مكانه وآثر تنحيتهُ عنهُ ان يثبت في موضعه صورة السيد المسيح الممثَّل في هذا العرش كما هو المختار في العادة القديمة أو على الاقل صورة سميّه القديس بطرس الرسول أو القديس حنانيا صاحب كرسي دمشق تبعاً لاصطلاح بعض الكنائس اليونانية المتأخرة ولا يعمد على كل حال الى صورته الخاصة فيفضلها على صور السيد المسيح والقديسين ويغتصب لها ما يجب لله واوليآئه من السجود والتعظيم. ولعل الارجح انهُ فعل ما فعل لوهم دخل عليه في منصبه على اثر التظاهرات الشديدة التي قام بها غُلاة شيعته قبل انتخابه وبعدهُ فاستخفَّهُ ما رأى ووعى وتمثلت لهُ رعيتهُ متفرقةً في انحآء المعمور فتخيَّل ان منزلتهُ في الكنيسة لا تقلُّ قدراً وسعةً عن منزلة اعظم الاحبار فيها كما يدل على ذلك تلقُّبهُ بالبطريرك المسكوني في بعض خُطبه واحاديثه وتعمّدهُ ذكر قارّات اروبا واميركا واوقيانيا في منشوره الذي اصدرهُ في يوبيل الحضرة السلطانية. وكان قبلاً قد طاف القطرين السوري والمصري وسمع من مدائح المهنئين ومبالغات المقرّظين ما زاد في احلامه واضاف وهماً الى اوهامه حتى اذا بلغ المنصورة تصدَّى لهُ بعض الخطبآء البارعين بخطبةٍ

فريدة في بابها عرض عليه فيها امرين قال « احداهما توثيق عُرى الالفة والمودة والاتحاد وهذا اظهرتموهُ قولاً وعملاً . والثاني ان تسمحوا بالمودة معي بالفكر الى زمن انتهآء دولة الرومانيين لنمجّد الله بذكر مجيد اعمال اسلافكم آبآء الكنيسة الابرار الذين لم يكونوا في ذلك الزمن في حياتهم اوفر منكم علماً ولا اغزر مادةً ولا اكبر عقلاً ولا اوفى الى الله عهداً وموثقاً ولا اسمى مقاماً ولا ارفع رتبةً ولا احفل منزلةً ولا امنع مركزاً ولا احبهم للشعب ولا احبهُ اليه منكم » (طالع العقود الدرية في التهاني البطريركية (ص ١١٩) وكان ايضاً قد انشدهُ قبل ذلك احد شعرآء الرهبان قصيدةً قال لهُ في اثنآئها

عند التلفظ باسم بطرسنا السمي ورعاً وخوفاً تسجد الاحيآء (ص ٩٠)

فلم يشك عند سماعه مثل هذا الكلام الغريب الذي تلقاهُ بالشكر والثنآء انهُ في الحقيقة اكبر عقلاً وارفع رتبةً من آبآء الكنيسة اليونانية وان اسمهُ الكريم رهبة الاحيآء وقبلة الساجدين فلم يكد يلقي عصاهُ في دمشق حتى عمد الى صورة القديس باسيليوس فنزعها من كرسيّه البطريركي ونصب رسمهُ في موضعها يتقبّل سجود المصلّين ولا يبعد كثيراً انهُ لو تهيأ لهُ ما فوق ذلك لم يلبث ايضاً ان يعزل السيد المسيح من هيكله وينادي على نفسه في مكانه ألا فاعبدوني ايها الثقلان

الكتب والمخطوطات

ليس في يبرود اليوم ما يستحق الرحلة اليه من الكتب والمكاتب

وقد قلّبت كل ما اتّصل بي من فهارس الخزائن الشرقية في اروبا ولا سيما فهرسَي المخطوطات السريانية في باريس ولندرة فلم اظفر بشيء فيها خطَّ قبلاً في بيروت او كان قنية احد اهلها . وانما حداني الى زيارتها رغبتي في الوقوف على مكتبة المطران غريغوريوس عطا ووصف ما كنت اقدّر وجودهُ فيها من المصنفات والمجاميع الخطية في العربية والسريانية التي كانت ابرشيتهُ ملأى بامثالها حين تسقيفهِ عليها ولا تزال بقاياها اليسيرة توجد المرة بعد المرة في معلولا وقارة خاصةً مع كل ما احرزهُ السيّاح والزوار منها او التهمتهُ افواه النار وعبثت بهِ ايدي الضياع ولم اكن اعلم وقتئذٍ انهُ باع كل ما وقع اليهِ منها طمعاً في الانتفاع بقيمها كما سبق التنبيه عليهِ في الجزء الثالث من هذا الكتاب ولذلك فغاية ما وقفت عليهِ وامكنني اقتناؤهُ في بيروت من المخطوطات الحريّة بالذكر بعد الاستقصاء في البحث والتحفي في السؤال اربعة كتب فقط وهي

١ « كتاب ستشراري الترتيل والتلحين . يتضمن مديح الابرار القديسين . قابلهُ على الرومي بكد وتعب . الفقير ملاتيوس مطران حلب . وذلك بتاريخ الف وستماية واثني عشر لسنين سيدنا يسوع المسيح . الموافق الف وعشرين للهجرة الاسلامية تاريخ صحيح . » وهذا نص مقدمتهِ

المجد لله واهب العلم لذوي العقول والالباب ومرشد المومنين الى معرفة الحق والصواب نحمدهُ على جميل احسانهِ ونشكرهُ على جزيل امتنانهِ ونسألهُ صفح زلاتنا وغفران خطايانا وسياتنا اما بعد اني لما وقفت على ما تعب فيهِ غيري من العلماء السالفين من تفسير كتب الفضلا والمعلمين التي اخرجوها من اللغة اليونانية

ودوّنوها باللغة العربية فمن جملتها هذا الاستشراري الموضوع الان في كنايس الارثودكسيين المشتمل على مديح الابرار والقديسين فاني فتشتهُ فوجدتهُ موعوب من الغلط والتغيير فقابلتهُ على الرومي واتقنتهُ من كلامهِ الناقص وجمعت فيهِ ترنيمات اعياد القديسين والاعياد السيدية على مدار السنة والسبح لله دايماً

واولهُ « ابتداء شهر ايلول » وهو ناقص من آخرهِ . وفي خاتمة ترنيمات يوم الخميس العظيم فسحةٌ خط فيها الكاتب ما يأتي « سُطّر نهار السبت حادي عشر تشرين الاول من شهور سنة سبعة الاف ومائة وخمسة وستين لابينا آدم عليهِ افضل السلام الموافق شهر محرم الحرام سنة ١٠٦٧ للهجرة الاسلامية بيد افقر عباد الله تعالى يحنا بن الخوري يعقوب بن الخوري كساب تلميذ الخوري يوحنا عويسات سنة ١٦٥٦ للتجسد الالهي » وفي ذيل الورقة الاولى تحت العنوان كتابة حديثة مفادها وقف هذا الكتاب على كنيسة مار الياس في قرية المعرة كنيسة مار دوماتيوس (كذا)

٢ « كتاب انفولوجيون الصلوات والطلبات يحتاج اليهِ الكاهن في جميع الاوقات فسرهُ من اللغة اليونانية بكد وتعب الفقير ملاتيوس مطران حلب » وهو في ١١٦ فصلاً او راساً قد سقط منها ثمانية عشر في احدى عشرة ورقةً . وليس في آخرهِ كتابة او حاشية يُعرف منها اسم الناسخ وتاريخ نسخهِ خلا ان هنالك تعليقات بخطوط مختلفة ممن اقتنوا هذا الكتاب ورد في اولها اسم الخوري بطرس قلومة سنة ١٧٩٥ وفي آخرها تصريح بوقفهِ على « دير مار سركيس معلولا تابع دير المخلص مشموشه » وهذا متن المقدمة بتمامهِ

الحمد لله الذي ارشد المومنين الى طريق الحق والصواب وانقذهم من ظلمة الكفر بالعلم والكتاب فلهُ الشكر على الدوام الى يوم البعث والقيام اما بعد ان الله

جلّ ثناؤه وتقدست اسماؤه ميز الرعاة ممن هم دونهم من الرعية وخصهم بالمواهب الفاضلة والعطايا السنية واطلعهم على الامور الغامضة والاسرار الخفية ومنحهم نعمتهُ مجان ليعطوها مجان بغير رشوة ولا هدية فاعظم الاسرار واشرفها اسرار الكنيسة السبعة الروحانية وهي العماد والميرون والقربان والاعتراف والزيت المقدس واكليل الزواج والشرطونية وهذه الاسرار أُعطيت قديماً للرسل الاثني عشر السليحية وبعدهم سلمت للابا الثلاثماية وثمانية عشر المجتمعين اولاً بمدينة نيقية والابا سلموها لروسا كهنة الحق ومعلمين الديانة المسيحية فرتبوا لها صلوات وطلبات وافاشين خشوعية وجميع ما يحتاج اليه كهنة الملة الارثوذكسية ودونوها جماعة المومنين بالهام الروح القدسية ونظموها كعقد ذهبي بالفاظ كلها نبوية وفصول من الكتب اكثرها انجيلية ورسولية جملتها ماية وستة عشر راسا محصية مكتتبة باللغة اليونانية وموجودة في الكتب الطبع الرومية فلما رأيت انا الفقير ملاتيوس عدم وجودها في كنائس المومنين ووقفت على ما ادخلوه الجهال في بيعة الله من كتب الخارجين طرحت عني الكسل والفشل وخلعت سربال الضجر والملل واجهدت نفسي في ترجمتها وتفسيرها وبالغت مقدرتي في ضبطها وتحريرها واخرجتها الى اللغة العربية بجدٍّ ونصب وانا يومئذٍ مطران بمدينة حلب وحررتها بتاريخ الف وستماية وثلاثة لسني سيدنا يسوع المسيح الموافق الف وثلاثة واربعين للهجرة تاريخ صحيح

٣ مجموع لا يعرف لهُ ناسخ ولا تاريخ يحتوي ١ً رسالة القس يوحنا العجيمي مرسل رومية التي كتبها في قرية جون سنة ١٧٦٩ جواباً على سؤال القاهُ عليهِ الياس عبده في استعلام اشياء تتعلق بتاريخ الطائفة المارونية وهي التي طُبعت في مطبعة التمدن في القاهرة سنة ١٩٠٠ بعنوان الحجة الراهنة في حقيقة اصل الموارنة في ٨٠ صفحةً . وقد اضاف اليها طابعها مقدمةً

(ص ا — ط) وعدة حواشٍ شرح فيها بعض اغراض الكتاب والحق بها ذيلاً جمع فيهِ بعض شهادات المؤرخين وختمها ببيان اصل بطريركية الموارنة (ص ٤٠ — ٨٠) . وقد قابلت هذه النسخة على النسخة الخطية فوجدت بينهما اختلافاً يسيراً غير ان هذه تشتمل في ما عدا الرسالة السابقة على ملحق اطول منها يبلغ ٣٧ صفحة متوسطة وهو فيما يظهر للقس يوحنا العجيمي المذكور كتبهُ سنة ١٧٧١ كما يؤخذ من كلامٍ لهُ . وموضوعهُ « ايضاح بخصوص البحث الذي حدث في سوريا بين الموارنة وبقية الطوائف الكاثوليكية عن شخص يوحنا مارون المقدم منهم للمجمع المقدس بالالفاظ الآتية اي هل يوحنا الملقب بمارون اول بطاركة الموارنة الانطاكي يمكن ان يكرم بين القديسين ام بالحري يلزم ان يعد بين الاراتقة » وفيهِ ايضاً مواضع انتقد فيها ما ورد في كتاب المحاماة عن الموارنة وقديسيهم ومن ثم فقد كان الاولى بطابع الحجة الراهنة وقد شاء معارضة هذا الكتاب خاصةً ان يبحث عن هذا الملحق ويطبعهُ في عقب الرسالة اذ كان اوفى بمرادهِ واكثر ملاءمةً لغرض المؤلف من التذييل الذي استعار لهُ ما ورد في كتاب جامع الحجج الراهنة للمطران يوسف داود بعد ان اغار ايضاً على مسماهُ دون ضرورةٍ ولا اقتضاء . ٢ « مجادلة ابي قرة مع الخليفة المأمون » في ٣٤ صفحةً وهي طافحة بالاغلاط . ٣ قصة الراهب بحيرة رواية الراهب مرحب بلغةٍ ركيكة . وقد نشر ملخصها البارون كارا دي ڤو في مجلة الشرق المسيحي السنة الثانية ص ٤٣٩ — ٤٥٤ عن نسخة في المكتبة الوطنية بباريس

٤ مجموع تأليف المطران غريغوريوس عطا وفيهِ مواضع بخطهِ يتضمن

ذكر المصنفات الآتية حسبما شرحها بلفظهِ وهي ١ً عما يختص بتسمية طائفتنا يونانية ملكية وفيهِ تمهيد عن اوامر الاحبار الرومانيين مختصة بطائفتنا . ٢ً سلسلة البراهين عن البطاركة الروم الكاثوليكيين . ٣ً المختصر يحتوي على بعض اخبار مطارنة طائفتنا الذين وجدوا على كراسي الابرشيات من سنة ١٦٨٠ الى الآن (وهو يتضمن تاريخاً كان قد ألفهُ قبلاً عن ابرشية حمص وحماة واساقفتها الاقدمين) . ٤ً بهِ التخبير عن رهبنات طائفتنا الروم الكاثوليكية . ٥ً المجامع الاتصالية في طائفة الروم الكاثوليكية . وهذه المؤلفات الخمسة هي التي جمعها فيما بعد في كتاب واحد اطلق عليهِ عنوان « حوض الجداول التاريخية في طائفة الروم الكاثوليكية » . ٦ً تاريخ مدينة زحلة . ٧ً الوثيقة في سلطة البابا الروماني على المشرق من مبادي الكنيسة حتى الآن . ٨ً عدة اسئلة واجوبة لهُ قلّد فيها البطريرك مكسيموس مظلوم . ٩ً القضية الدينية بعدم انحلال الزيجة النصرانية للبطريرك المذكور وعليها حواشٍ للمطران . وبعض هذه الكتب غير منقولٍ في هذا المجموع . وفي نسخة اخرى منهُ ذكر نبذةٍ من تأليفهِ « عن بعض علماء متأخرين نبغوا بطائفتنا الذين لهم تأليف » قال انهُ ضمّنها هذا الكتاب ولم تُضمَّن

وممن استنسخ حوض الجداول المرحوم شاكر البتلوني سنة ١٨٨٤ وهو الذي تولى نشر ملخص منهُ على ما صرّح بهِ المطران في موضع من كتابهِ قال فيهِ « في سنة ١٨٨٤ جاء لعندنا ليبرود الخواجا شاكر البتلوني من بيروت واخذ نسخةً من الثلاث جداول التي من تأليفنا عن البطاركة

الكاثوليكيين وعن المطارنة وعن المجامع ومضى لكي يطبعهم فسخهم حيث قدّم واخّر واختصر وغلط في التاريخ فوجد بعد طبعهِ مملو من الغلطات وسماهُ مختصر تاريخ طائفة الروم الكاثوليك فقصد منهُ الربح لا الفائدة العمومية» وهو المختصر المعروف المتداول بين الايدي اليوم المطبوع في المطبعة الادبية في بيروت دون مقدمة ولا ذكر للمؤلف . وقد قابلتهُ على نسخة المطران فوجدتهُ منقولاً عنها بتصرف واختصار لا يكاد يتعدى التغيير فيها تنقيح عبارتها وحذف فضولها وزيادة اشياء يسيرة عليها . ولما كان هذا الكتاب هو المرجع الذي اعتمدهُ كل من كتب عن تاريخ الروم الملكيين او انتقد اشياء من اخبارهم لاعتقادهِ الصحة في روايتهِ او توهمهِ انهُ الخلاصة التي عوّل عليها علم الطائفة رأيت ان ابسط الكلام عنهُ ههنا بما يكشف عن حقيقتهِ ويعرّف مقدارهُ وانبّه على بعض ما ورد لهُ فيهِ من وجوه التقصير والخطإ ثم اشفع ذلك بذكر الخطة التي يتعين اتباعها على كل من رام الاشتغال بتاريخ الطائفة وتعداد الشروط التي ينبغي للمصنف فيهِ ان يستوفيها قبل الاقدام على التصنيف وهي ولا جرم اول مرة تصدى فيها احد هذه الامة للافاضة في مثل هذا البحث الشاق ولا يخفى ان الحديث فيهِ ذو شجون فلذلك تطرّق بي النقد الى تناول اشياء تعرض لها المطران ورأيت في التنبيه عليها تبصرةً وفائدةً فحكيت فيها ما حضرني مقتصراً منها على ما صح عندي شاهدهُ وثبتت لدي حجتهُ

ولا بد قبل الشروع في تفصيل الكلام على بعض اجزاء هذا الكتاب من تقديم جملةٍ كافيةٍ عنها تتناولها باسرها وتغني عن تكرار القول في كلّ

منهـا بمفرده . ومعلوم ان المؤلف في اوائل كهنوته كان قد اقام في الوكالة البطريركية في دمشق نحواً من احدى عشرة سنة قبل فتنة الستين . وكانت دمشق وقتئذٍ لا تخلو من كثير من المخطوطات القديمة في خزائن الكنائس ومكاتب الخاصة بعضها من تأليف رجال الكرسي الانطاكي انفسهم كالبطريرك افتيموس كرمة ومكاريوس الحلبي وابنه الشماس بولس واشباههم . فاذا صح اذن ما يُعزى اليه من ولعه بالمطالعة والتنقيب وشغفه بالتأريخ والتدوين كان من الغريب البعيد ان يدع البحث عن امثال هذه المخطوطات وما شاكلها من الاوراق المنثورة والكتابات وهي مفعمة بالفوائد التاريخية على ما يتبين من استقراء بقاياها القليلة الى اليوم ولا يحرص على نقل مايراهُ موافقاً منها لغرضه ليضمهُ الى نظائره مما كان يسهل لهُ تحصيلهُ في قارة ومعلولا وسائر قرى ابرشيته في بدء مطرانيته عليها . ولذلك فاول ما يتبادر الى ظن قارئ كتابه اشتمالهُ على شطر صالح من هذه المقتبسات التاريخية يكون قد اوردها فيه سنداً قديماً استعان به على ايضاح ما خفي من احوال الكرسي الانطاكي قبل الانفصال واستشهد بمواضع منها على تمييز نزعات الاساقفة ممن تدّعيهم كلتا الطائفتين ولا تثبت لهم نسبة صحيحة

وقد كنت ارى مثل هـذا الرأي قبل ان وقعت اليّ النسخة الاولى من هذا التاريخ فلما حصلت في يدي وانجزت مطالعتها لم اجد فيها ذكراً لقديم ولا حديث من المخطوطات النادرة التي كنت اقدّر وجودها عند المطران بل غاية ما رأيتهُ استشهد به منها مرةً «كتاب اخبار الروم بشرحه عن المجمع الفلورنتيني نقلاً عن البطريرك مكاريوس » . واما من الاوراق

المنشورة والمقطعات فلم يُشِر الى سوى نسخة اعمال مجمع طرابلس سنة ١٦٨٠ ودير القرقفي سنة ١٧٨٨ ودير المخلص سنة ١٧٩٠ ولكنهُ في كلا الاستشهادين لم يستدرك فائتاً ولا نبَّهَ على جديد بل اقتصر على نقل ما تناولهُ هنيئاً من اخبار البطاركة والاساقفة في كتاب التختيكون للاب يوحنا العجيمي نقلاً تتبع فيهِ خطوات المؤلف ووقف عند ظاهر عبارتهِ فحيث لم يجد نصاً صريحاً واثباتاً بيناً تأول الخلاف واساء فهماً فاساءَ جابة . وقد اعترف مرةً انهُ ناقل ما في هذا الكتاب فقال لاول وهلة « اعتبر ذاتي ناسخ ما وجدت عند المؤرخين وما صدرت بهِ اوامر الاحبار الرومانيين وما ورد في كتاب التختيكون » ثم كبر عليهِ الاقرار لما فيهِ من الافتضاح وانتقاء فضيلة التصنيف عنهُ فضرب خطاً على هذه العبارة الاخيرة كعادتهِ في حب كتمان ما يبتزُّهُ ليسهل عليهِ انتحالهُ

وعلى هذا المنوال ايضاً كتم اسماء الكتب التي استمدَّ منها اخبار ما بعد سنة ١٧٦٠ وهو الحدّ الذي بلغهُ القس يوحنا العجيمي في تأليفهِ المشار اليهِ ولم يتفق لهُ تسمية شيء منها غير كتاب فرائض الرهبنة الشويرية ذكرهُ عرَضاً في غضون بعض احاديثهِ بحيث ان الواقف على هذا التاريخ لا يدري هل يستطيع ان يثق بكل ما ورد فيهِ لجهلهِ قيمة الاصل المأخوذ عنهُ وعدم تيقنهِ سلامتهُ من الزيادة والنقصان وهما الخلَّة التي كان لا يتحرَّج منها المؤلف ولا ينزّه عند الحاجة قلمهُ او لسانهُ عنها وقد عرض لي مرةً اني كنت انقّب عن بعض كتابات للبطريرك مكسيموس مظلوم تتعلق بتأريخ دير مار يعقوب في قارة فوقع اليَّ منها المنشور الاول بنسختهِ الاصلية فلما اقبلت على

مطالعتهِ وهممت بكتابتهِ رأيت فيهِ تبديلاً منكراً بخط المطران وعددت في اواخرهِ نحو ثمانية اسطر قد حذفها برمتها لمناقضتها بعض اغراضهِ في هذا الدير . ثم بلغني انهُ لما فُتح صندوقهُ في الدار البطريركية في دمشق وُجد في جملة اوراقهِ ضمنهُ منشور آخر للبطريرك نفسهِ في شأن الدير المذكور وقد نزع المطران وسطهُ لاشتمالهِ على اشياء لم تُرضهِ فتطلبت صورتهُ في مجموع خطيّ لهُ كنت قد قرأتهُ فيهِ فوجدتهُ مرويًّا على هيئتهِ المبتورة كأنهُ النص الاصلي بحرفهِ فبُهتُّ جدًّا وطال عجبي من تلك الذمة التي كانت تستبيح مثل هذا التصرف القبيح

وما خلا ذلك فان اكثر ما نقلهُ من الاخبار في كتابهِ ناقص غير كافٍ في الدلالة على حقيقة الواقع او مبتذل قلَّد فيهِ من سبقهُ دون تروٍّ ولا انتقاد لقلة تعودهِ الاستقصاء والتحقيق في كل ما يكتبهُ او يرويهِ . وقد اخترت من بين التراجم التي توسع فيها وزعم انهُ احاط باكثر اطرافها ترجمة الطيب الذكر البطريرك مكسيموس مظلوم الذي ادركهُ منذ اوائل بطريركيتهِ وصحبهُ زمناً غير يسير ووقف على سرهِ وجهرهِ وقد احتفل في كتابتها واستفرغ كل جهدهِ في تحريرها تلبيةً لطلب البطريرك المرحوم غريغوريوس يوسف على ما ذكرهُ في مقدمتها فلم اقرأ فيها الا مدحاً وتقريظاً وانباء ذهاب وايابٍ ونُبذاً قليلة من اعمالهِ اختتمها ببعض قصص ونكات اوردها شواهد على ما وصفهُ من اخلاقهِ مما لا يغني كبيراً في تعريف هذا الرجل ولا يكشف سرًّا عن حقيقة ما لهُ من فضل أو تقصير . وقد اخطأ القسم الاهم من ترجمتهِ وهو حكاية اخبارهِ منذ انتُخب مطراناً على حلب وما ولي ذلك من

النفار والاضطراب بين رعيته وسفره على الاثر الى اوربا بالوكالة العامة عن البطريرك اغابيوس مطر وتخليه هنالك عن ابرشيته للاعتياض عنها باسقفية ميرا شرفاً وتفصيل ما شغلهُ تلك السنين من الشواغل والمهمات الى حين رجوعه مع بعض آباء الرهبانية اليسوعية الى عين تراز وانتخابه بطريركاً على الطائفة وما تلقاهُ في هذا المنصب الجديد من المشاكل والمعضلات ولا سيما قضية القلنسوة المضحكة المبكية واضطراره بعد المجاهدة في القاهرة الى المرابطة في الآستانة نيفاً عن ست سنين الى ان تمكن من تحرير أُمته تحريراً اعتقها من كل ربقة وافرز لها المقام الذي بلغتهُ في ايامه

وقد عثرت في ذكر هذين الطورين من حياته وبيان ما أتاهُ فيهما على مجموعين خطيَّين يتضمن الثاني منهما نصَّ اكثر الكتابات والمخاطبات الرسمية الصادرة في ذلك العهد في المعنى المشار اليه طالعهُ المطران قديماً فلم ينقل منهُ شيئاً في كتابه لما طُبع عليه رحمهُ الله من الاشتغال دائماً بالقشور عن اللباب وجهله قدر ما كان يقع اليه من الصحف والمخطوطات . وقد وُجد في مكتبته بعد وفاته كيس مفعم بأوراق ورسائل شتى للبطريرك السابق الذكر كلها بامضائه ومنها ما هو بخطه ايضاً . ومع معرفته بامكانه تعليق ايضاحات جمة عنها واختياره اشياء بينها اثبتها في كتاب دعاهُ روضة الزهور فلم يستعن بكلمة مما فيها على بيان اعمال هذا الرجل واظهار قدر اجتهاده بل اطَّرحها جانباً ووزَّع منها ما شاء توزيعهُ على اصدقائه . فاذا كان مثل هذا صنيعهُ بسيرة احب الناس اليه واعرفهم عندهُ فما الظن بسائر ما كتبهُ عمن لم يكن لهُ فيه هوًى اولم تبلغهُ معرفتهُ . لا جرم ان الرأي الذي حدا طابع مختصره

على اختصاره ونشره لرأيٌ فائل مشؤوم لم يعقب الا الفضيحة للمطران والمنقصة للطائفة التي قُضي عليها ان ينفرد نظيرهُ في هذا العصر بجمع اخبارها وتدوين تأريخها

الجدول الاول عما يختص بتسمية طائفتنا يونانية ملكية

غالب هذا القسم مأخوذ من الرسالة العامة التي اصدرها البابا بناديكتوس الرابع عشر في ٢٤ كانون الاول سنة ١٧٤٣ وهو نفس التمهيد المطبوع في المختصر (ص ٣ — ٨) غير ان هذا يزيد عليه ببعض مقتطفات أُضيفت على الاصل في تفسير كلمة ملكيين والاستشهاد على صحة معناها من اقوال بعض المؤرخين والعلماء . واقدم هذه الشواهد كلها لا يتعدى القرن الرابع عشر و بينها ما لا يصلح ان يتخذ حجةً في هذا الباب نظير ما رُوي عن ليتراي و بولياي وغيرهما . ومعلوم ان اسم الملكيين انما هو في الاصل لقب أطلقهُ اليعاقبة في القرن الخامس على اتباع المجمع المسكوني الرابع في سورية لموافقتهم مقالة الملك مرقيان الذي كان الداعي الى هذا المجمع والمعين على تأييد كلمته . وهو القول الذي تشهد بصحته الآثار وعليه اكثر المحققين

واول من زعم فيه الخلاف وتصدَّى لمناقضته كتّاب الموارنة المتأخرين فذهب بعضهم الى ان لقب الملكيين كان يتناول في القديم قوماً من الخوارج في القرن السابع للميلاد دانوا للملك يُستينيان الاخرم في الحرب التي زعموا انهُ اثارها في سورية سنة ٦٩٤ تحت إمرة القائدين موريق وموريقان ليقبض على البطريرك يوحنا مارون . وكان هذا الملك « لصغر عقله مال

الى اقوال بعض اساقفة في قسطنطينية كانوا على مذهب المشيئة الواحدة ووعدهم بابطال ما كان قررهُ المجمع السادس في ايام ابيهِ ....وبسبب هذه الحملة على يوحنا مارون ولا سيما بسبب الواقعة التي جرت بين اهل الكورة وجبة بشرّاي كان بدء الفرقة بين الموارنة وبين الملكية لان الذين تبعوا جيش الروم وانقادوا لرأيهم سُمُّوا ملكية تبعاً للملك المبتدع والذين ثبتوا في الامانة تحت طاعة البطريرك يوحنا مارون سُمُّوا موارنة » (طالع تاريخ الطائفة المارونية للدويهي ص ٧٨ — ٨٣ وسلسلة بطاركة الطائفة المارونية للمؤلف نفسهِ ص ٢٥٠ — ٢٥١ من مجلة المشرق للسنة الاولى)

وارتأى السمعاني في مكتبتهِ الشرقية (المجلد الاول ص ٥٠٨) رأياً آخر رآهُ ابعد عن الوهن والاشكال واقرب الى الرواج والتصديق فادعى ان هذا الاسم انما وُضع لغرض مدنيّ على اثر بعض الحروب التي نشبت في سورية لا في عهد الملك يستينيان كما حكى الدويهي بل في زمن ابيهِ الملك قسطنطين اللحياني وافترق من اجلها سكان القطر الى فرقتين تشيعت احداهما للملك فسميّت ملكية وتمرّدت الاخرى فدعي اصحابها مَرَدة وهم هم الموارنة فيما تقولوهُ ايضاً عن اصل هذا الشعب (راجع كتاب الدر المنظوم للبطريرك بولس مسعد ص ٦٧ والحاشية الواردة في ذيل تاريخ الطائفة المارونية للدويهي ص ٨٣ — ٨٦)

وقد بيّن فساد هذه المزاعم كلها المرحوم المطران يوسف داود في كتابَيهِ مختصر تواريخ الكنيسة للمعلم لومون المطبوع في الموصل سنة ١٨٧٣ وجامع الحجج الراهنة في ابطال دعاوي الموارنة الباقي خطًّا . ولذلك فقد

كان يجب على المطران عطا حين تعرض للخوض في بيان لقب الملكيين ان لا يدع التنبيه على هذه الخرافة اللبنانية التي افتأتها على طائفته البساني والدويهي والسمعاني وسائر من قلّدهم . وان كان لم يرَ من نفسه قدرةً على كشف عوار اقاويلهم الباطلة او لم تكن يدهُ تتناول حينئذٍ كتاب جامع الحجج الراهنة لينقل منهُ ما يحتاج اليه في تحقيق غرضه فلا اقل من ان ينسخ عن المؤلف نفسه الحاشية الواردة في كتابه الآخر مختصر تواريخ الكنيسة (ص ٦٣٠ — ٦٣١) التي ضمّنها ملخّص ما يُعوّل عليه في دحض تلك المذاهب الساقطة ولا يقتصر في كل حال على الاحتجاج باقوال بعض اصحاب المعجمات الاوربية ممن ليسوا باكفاء لبت الحكم في مثل هذه المباحث ولا تعدل شهادتهم شيئاً من شهادات من تقدمهم من المؤرخين والكتبة الشرقيين

ولما كان مثل هذا الموضع مما يهم ايضاحهُ ليس فقط الروم الملكيين الكاثوليكيين الذين تفردوا بهذه التسمية منذ اوائل القرنين الاخيرين بل الروم الارثودكس ايضاً وكلاهما اتباع المجمع الخلقيدوني الرابع الذين أُطلق عليهم في الاصل هذا اللقب فقد رأيت تعويضاً عما فات المطران اثباتهُ فيه وحسماً لكل شبهةٍ ونزاع ان اقتبس هنا ما بقي بالحاجة من الفصل الوارد في هذا الصدد في كتاب جامع الحجج الراهنة (الفصل الرابع من الباب السابع في معاداة الموارنة للملكيين) اذ كان المؤلف قد استوعب فيه كل وجوه القضية واستقصى ما لها من بينةٍ وبرهان . وهذا نص كلامه بعبارته نقلاً عن نسخةٍ صحيحة وقفت عليها قال فيها بعد ان نقل رأي السمعاني الذي

تُقدم شرحهُ قريباً

وهذا القول ايضاً لا اصل لهُ كما هو واضح فاننا قد بيّنّا في فصل طويل ان المردة لم يكونوا موارنة بل كانوا عسكرًا مقاتلاً للعرب عن ملوك الروم . ثم ان اسم الملكي لم يرد قط بمعنى حربي . ثم ان السمعاني نفسهُ قد فنّد قولهُ اذ قال في المحل المذكور ان اسم الملكية لم يرد في الآثار القديمة حتى القرن العاشر

فيتضح من هذا كلهِ (١ً) ان اسم الملكية لا نسبة لهُ مع اسم المردة (٢ً) انهُ لم ينشأ في القرن السابع لسبب ظهور البدعة المنوثليتية كما يدعي الموارنة كأن الذين تبعوا ملوك الروم المنوثليتيين سُمّوا ملكيين وادلة ذلك كثيرة سوى ما قلناهُ سابقاً وهاك اخصها

١ً . لم يرد قط في التواريخ عند مؤلف كاثليكي او مشاقّ او هرطوقي اسم ملكي بمعنى منوثليتي . فلما كان خصمنا اول من قال هذا القول من دون سند ولا شاهد ظهر بطلان قولهم جلياً واضحاً

٢ً . على قول السمعاني (ويتبعهُ في ذلك الموارنة المتأخرون) لم يذكر احد اسم الملكية قبل القرن العاشر . والحال ان الملكية كانوا في القرن العاشر من القائلين بالمشيئتين بلا شك . فاذاً لم يكن اسم الملكية قط دالاً على منوثليتيين

٣ً . ان جميع الذين ذكروا الملكية ان كانوا من الروم او من اليعاقبة او من النساطرة او من الافرنج او من غيرهم حتى الموارنة نسبوا اليهم القول بالمشيئتين للمسيح ذي الطبيعتين والاقنوم الواحد . فلم يكن اذاً اسم الملكي دالاً على منوثليتي قط

٤ً . لا شك ان اسم الملكية مشتق من اسم الملك والمراد بذلك ملوك الروم . وقُصد بذلك الاسم تمييز القوم القائلين في الدين بقول ملوك الروم . فلا بد من ان هذا الاسم اشتقّهُ قوم كانوا رافضين مذهب ملوك الروم . والحال انهُ لا يمكن ان يكون ذلك قد حدث في زمان هرقل وقسطنطين وقسطنط او قسطة المنوثليتيين لان اسم الملكيين نشأ اول مرة في بلاد سورية بلا شك . والحال ان التواريخ لم تذكر

انهُ في زمن أولئك الملوك كان في سورية قوم قالوا بالمشيئتين وقاوموا مذهب الملوك حتى كان يمكن ان يسموا اخصامهم المنوثليتيين ملكيين اي تباع الملوك فان اهل سورية كانوا غالبًا يعاقبة وهؤلآء كانوا منوثليتيين . وكان قليل منهم نساطرة وهؤلآء ايضًا كانوا منوثليتيين . والباقون التابعون مقدونيوس وجيورجيوس ومقاريوس بطاركة انطاكية المنوثليتيين كانوا هم ايضًا منوثليتيين ولا سيما اهل جبل لبنان فلم يبقَ في زمان الملوك المنوثليتيين قوم معتبر معروف في بلاد سورية يقول بالمشيئتين ويرفض قول ملوك الروم . وان كان قد وُجد منهم شيء فبلا شك لم يكونوا في جبل لبنان فاذًا لم يمكن البتّة ان اسم الملكية نشأ في الحقبة المنوثليتية اي في زمان هرقل وخلفآئهِ المنوثليتيين . ولا يجوز ان نقول ان المردة سموا تباع مذهب ملوك الروم ملكيين فان المردة الذين يدعي الموارنة انهم كانوا اضداد ملوك الروم خلافًا لصحة التواريخ لم يكونوا شيعةً دينية وهم ظهروا اول مرة في زمان قسطنطين الملك اللحياني الذي كان ارثدكسيًا فلو كان هؤلآء قد سموا تباع مذهب الملك ملكيين لكان المردة غير ارثدكسيين وكان اسم الملكيين دالاًّ على ارثدكسيين كما ندعي نحن . ويبان ذلك خصوصًا من ان اسم الملكيين نراهُ لدى المؤلفين قاطبةً دالاًّ على القائلين بالمشيئتين ولا نرى احدًا البتة استعمل هذا الاسم بمعنى منوثليتي فكيف يمكن ان يكون هذا الاسم دالاًّ في الاصل على منوثليتيين ثم ينقلب بعد سنين قليلة الى عكس ذلك المعنى ويصير بمعنى قائلين بالمشيئتين

واذا اتضح ان اسم الملكيين لم ينشأ في الحقبة المنوثليتية اي من سنة ٦٢٢ الى سنة ٦٨٠ يتضح ايضًا ببيان اكثر ان هذا الاسم لم ينشأ بعد تلك الحقبة . وذلك ان ملوك الروم من قسطنطين اللحياني الذي تخلف بعد قسطة وبهمتهِ حرمت المنوثليتية في المجمع السادس كانوا باجمعهم ارثدكسيين[1] حتى يسطنيان الاخرم الذي آذى المسيحيين . والكنيسة الانطاكية منذ ذلك الحين تطهرت من خلال المنوثليتية تمامًا . فقد غلط اذًا موارنة زماننا ايَّ غلط اذ زعموا ان اسم الملكية نشأ اول مرة في زمان

---

(١) لا يعبأ بواحد ملك زمنًا قليلاً وهو فيلبقوس

يسطنيان الملك الاخرم للذين كانوا يتبعونهُ في المنوثليتية سماهم بهِ اضداد هذه البدعة وهم المردة على قولهم

ومن هذا كلهِ تتبين صحة القول الشائع وهو ان اسم الملكية نشأ في زمان مرقيان ملك الروم في القرن الخامس دلالةً على الكاثوليكيين التابعين تحديد المجمع الخلقيدوني بالطبيعتين في المسيح اخترعهُ المنوفسيتيون عليهم بغضةً ومعيرةً كما ذكر جميع المؤلفين الذين كتبوا عن اصل اسم الملكية من شرقيين وغربيين . وقد اخطأ السمعاني اذ قال ان اسم الملكية لا يرد في الكتب قبل القرن العاشر فان طيمثاوس الاول بطريرك النساطرة المار ذكرهُ وهو عاش في القرن الثامن قد ذكر الملكية اكثر من مرة في رسائلهِ من ذلك قولهُ في احدى رسائلهِ (ما تعريبهُ) « عند ما استخرجنا كتاب تيبيكون من السريانية الى العربية كان معنا قوم يونانيون ومنهم بطريرك الملكيين » وكذلك ذكر الملكية كثيرٌ في المصحف السعردي (س) الذي أُلّف في اواسط القرن التاسع . فلقد توهم بعض من المؤارنة القدماء حيث قالوا بعكس ما قالهُ اولادهم المتأخرون اي ظنوا ان اسم الملكية انما وُضع في الاصل للدلالة على القائلين بالمشيئتين . قال صاحب كتاب الهدى وهو شرع المؤارنة (في ورقة ٢٥ من المصحف الواتكاني عدد ١٣٣) « الفرقة الملكية هي المنسوبة الى الملك قسطنطين بن قسطنطين (والصحيح قسطة) بن هرقل » وهو الذي بهمتهِ التأم المجمع السادس . وقال توما الكفرطابي في كتاب المقالات العشر (في المصحف الواتكاني السرياني ١٤٦ ورقة ١٥٠) مخاطباً الملكيين » نحن سُمينا موارنة على اسم الدير دير ماران . . . . وانشقيتم وحدكم انتم وسُميتم ملكيين على اسم الملكين عابدين مشيتين وارادتين وفعلين وعرضين ومذبحين[1] وتصلوا باصبعين »

---

(١) البائن ان توما الكفرطابي بهذه كلمة مذبحين اشار الى العادة الجديدة التي دخلت عند الملة اليونانية في الاجيال المتأخرة وهي ان يقدس في الاعياد الكبيرة اكثر من قداس واحد في الكنيسة الواحدة وذلك على مذابح مختلفة . وهذه العادة لم تدخل عند سائر الملل ولا سيما السريان فان النساطرة منهم لا يصير عندهم الا قداس واحد

فبكل صدق اذاً اشتق ديونيسيوس بن الصليبي اسم الملكية من اسم الملك مرقيان [1] حيث قال في الفصل الاول من شرح القداس (ما تعريبهُ) « انما سُموا ملكيين لانهم تركوا (على قولهِ الكفري) دين الآبآءِ وتبعوا رأي مرقيان الملك » وقد افحم الحق الموارنة نفسهم كلما تكلموا عن غير مسألة اجدادهم ان يقرّوا بان اسم الملكية دليل على قوم ارثذكسيين . قال السمعاني في وجه ٥٠٩ من المجلد الاول من المكتبة الشرقية « ان اسم الملكية كان اولاً دالاً على ارثذكسيين والآن يراد بهِ المشاقون من سريان ومصريين التابعون طقس اليونان » وقال في وجه ٤٧٤ من المجلد المذكور « ويضاف الى ذلك (كلامه عن يعقوب الرهاوي) شهادة السريان الملكيين الذين كانوا في كل وقت اعداء للمنوفسيتيين وللمنوثليتيين » وقال في وجه ٤١٠ من المجلد الثاني متكلماً عن زمان برصوم النصيبيني الذي نشر النسطورية في بلاد الشرق وعاش في مبادئ القرن السادس « ان الكاثليكيين الذين كانوا يُسمون خلقيدونيين وملكيين قل عددهم شيئاً فشيئاً وبقي قليل في الشرق يتبعون ايمان اليونان او الروم وطقسهم » أرأيت كيف السمعاني اعترف ان الملكيين كانوا في القرن السادس نفسهِ وانهم كانوا ارثذكسيين . والمجمع اللبناني الشهير حيث تكلم باسهاب عن انفصال الموارنة من الملكية لم يسم الملكية بادنى ضلالة بل جعل سبب هذا الانفصال والعداوة مدنياً لا دينياً (وجه ٢١٨ و٢١٦ من طبعة سنة ١٨٢٠) وقد أقرَّ اسطفانس الاهدني في كتاب تراجم بطاركة الموارنة في ترجمة جبرائيل البطريرك الاول ان الملكيين بعد موت يسطنيان الاخرم شرعوا يعتقدون بالمشيئتين والفعلين اي من سنة ٧١٧ فصاعداً . وهذا الاعتراف كافٍ لمقصودنا ولو كان مخالفاً لصحة

يقدسهُ قسيس واحد . وفي بعض الاماكن فقط يقدس اكثر من قسيس واحد في وقت واحد على مذابح مختلفة الا ان واحداً منهم فقط يرفع صوتهُ وهو وحدهُ يُحسب المقدّس . وكأن الموارنة ايضاً كانت لهم هذه العادة كما يتبين من هذه كلمات الكفرطابي

(١) قبل ابن الصليبي بنحو مايتي سنة كان سويرس بن المقفع المار ذكرهُ قد قال هذا القول في القسم الثاني من كتاب الاشراق

التواريخ وللحق الواضح . وقال يوسف لويس السمعاني كما اورد صاحب الدر المنظوم في وجه ٧٥ « ان اسم كنيسة السريان الانطاكية يعم جميع السريان الموارنة او الارثذكسيين واليعاقبة وباقي الهراطقة والملكية القدمآء » فعلى قول هذا العالم الماروني لم يكن الملكية القدمآء هراطقة .واسطفانس برجيا المقبولة شهادتهُ عند الموارنة في وجه ١٣٦ من كتاب الصليب الواتكاني في الحاشية قال ان اسم الملكية كان دالاً زماناً على الكاثليكيين الا انهُ بعد ظهور شقاق اليونان صار يدل على الذين تبعوا هذا الشقاق . ثم ان السيد يوسف الدبس في وجه ٢٠٤ من كتاب روح الردود سلَّم تبعاً لما قالهُ يوسف سمعان السمعاني في وجه ٥٠٠ من المجلد ٥ من مكتبة الشرع ان الملكية كانوا ارثذكسيين في القرن الثامن . فمن هذا البحث كلهِ نستنتج (١ً) ان اسم الملكية لم ينشأ في الاصل لمقابلة اسم المردة او اسم الموارنة . (٢ً) ان هذا الاسم لم يكن في الاصل الا دليلاً على قوم ارثذكسيين تابعين المجمع الخلقيدوني. (٣ً) ان هذا الاسم لم يكن قط دليلاً على منوثليتيين الاَّ عرضياً وذلك في مدة الحقبة المنوثليتية فقط اي في زمان بطريركية مقدونيوس وجيورجيوس ومقاريوس على انطاكية (٤ً) ان الملكية منذ المجمع السادس اي منذ سنة ٦٨٠ الى يومنا هذا كانوا على الدوام قائلين باقنوم واحد وطبيعتين ومشيتين في المسيح . . . . .

الجدول الثاني

سلسلة البراهين عن البطاركة الروم الكاثوليكيين

قسم هذا الجدول الى جزئين ادرج في الاول اسمآء بطاركة انطاكية الكاثوليكيين منذ القرن التاسع اي منذ شقاق فوتيوس الى المجمع الفلورنتيني الملتئم سنة ١٤٣٩ وذكر في الثاني اسمآء هؤلآء البطاركة ايضاً منذ هذا التاريخ الى العهد الحاضر تناولنا في الاعم الاغلب من كتاب التختيكون

ببعض تصرف وألحق بها ما اتصل به من سير البطاركة المتأخرين الذين تبوأوا الكرسي الانطاكي بعد سنة ١٧٦٠ وهو الحد الذي انتهى اليه القس يوحنا العجيمي مؤلف هذا الكتاب . واما البطاركة غير الكاثوليكيين قال فلا يلزمنا التخبير عنهم . ولذلك ضرب صفحاً عن كل من لم يتوهم فيه الكثلكة واقتصر على تسمية افراد في كل قرن عنّ لخاطره ذكرهم دون ان يورد السند الذي عوّل عليه في انتقاء من انتقاهُ منهم او اغفال من أغفلهُ . ولا يخفى ان قضية التمييز بين البطاركة بعد الشقاق والنصّ على مذهب كلٍّ منهم ومشربه حتى اوائل القرن الثامن عشر من اشد القضايا مراساً واعسرها مطلباً في تاريخ الكرسي الانطاكي نظراً لما يعترض في سبيلها من العقبات والشبهات التي يقف عندها المؤرخ حائراً متردداً دون ان يتهيأ لهُ الحكم فيها على وجهٍ يأمن معهُ الوهم والخديعة وذلك لخفاء كثير من صحيح اخبار ذلك العهد وضياع معظم ما اختصّ به من الكتابات والمصنفات فضلاً عن اختلاف احوال الكثلكة فيه عن مثلها في هذه الايام لتعذر اتصال العلائق وقتئذٍ بين انطاكية ورومة وشدة ما كانت تلقى النصرانية من الضيق والرَهَق بين تلك الحروب والشرور والفتن المعروفة في كل الدول التي تعاقبت من قبل على هذه الديار

ولهذه الاسباب لا يكفي في تبيان نزعات البطاركة والاساقفة الانطاكيين ونسبة كلٍّ منهم الى فرقته الخاصة به معرفة ما كتبهُ القس يوحنا العجيمي والخوري ميخائيل بريك او مطالعة تأليف الاب لوكيان واشباههم من المتأخرين فان الاجتزاء بمثل هذه المصنفات مدرجة الى الزلل والخطإ في

كثير من الاحكام التاريخية كما يشهد بذلك ما لا يزال يعثر عليه المحققون من الاوهام في هذا الاخير منها . وانما يتحتم الرجوع الى ما وراء هذه الطبقة من المؤرخين واستطلاع طلع كل جيل من الآثار المتخلفة عنهم ومن كتابات اهل العصر الذي وليهم متى امكن الوقوف على شيء منها كما سيجيء مثاله . ولا بد قبلاً من درس تاريخ هذا القطر دينياً ومدنياً وتعرُّف احواله وما تقلب فيه من الاطوار ولا سيما منذ قدوم الصليبيين ومراجعة ما ورد من الكلام عنهُ في اخبار كَتَبَة كل قرن من الشرقيين والغربيين والإحاطة معاً بما جاء من قبيلها في مصنفات اكابر اهل التدقيق من المحدثين ومتى اجتمع من هذه المطالعات باسرها ما يُظَنّ فيه القدر الكافي لتعريف كل بطاركة الكرسي يجب حينئذٍ اقرار ترجمة كل فردٍ منهم في مكانها من التأريخ مع التنبيه على ما ترجّحهُ القرائن من كثلكته او خلافها دون ان يُقتصر في كل حال على ايراد سلسلة طائفة منهم فقط كما فعل المطران وغالب من كتب عن تاريخ امة الروم الملكيين الكاثوليكيين في سورية لما في هذا الاقتصار من التحكم احياناً والتعرض للزيادة والنقصان

ولا بأس ان نزيد هذا الموضع بياناً بايراد بعض ما يُستدل منهُ على ما في هذه الطريقة المتبعة من القصور والاخلال وقلة الاصابة في إفراز رجال الفئتين . واول ما يصلح ان يتخذ مثالاً لذلك اسقاط المطران في الجزء الثاني من جدوله سلسلة البراهين اسم البطريرك ميخائيل السابع المعروف بالحموي من جملة الاحبار الكاثوليكيين دون ان توجد لهُ في ذلك حجة يُعوّل عليها سوى امساك صاحب التختيكون عن التصريح بمشربه الصحيح .

ولما كان مثل هذا الامر لا يُتوصل الى تحقيقهِ الا من مطالعة بعض كتابات هذا البطريرك الدالة على كُنه اعتقادهِ اذا صح وجود شيء منها او من الوقوف على اخبار معاصريهِ وسائر من اتصل بهِ طرفٌ من احوالهِ بين التابعين لهم — وليس على ما يُظن في ما عُرف منها الى الساعة عندنا ما يتكفل بقضاء هذه اللُبانة — لم يبقَ اخيراً الا مراجعة ما لعلّهُ يكون قد ورد عنهُ في احد المؤلفات الغربية التي ترتقي الى عهدهِ او تقرب منهُ . ولحسن الاتفاق لدينا منها رحلة اسقف صيدآء اللاتيني ليُونار آبل الذي ارسلهُ البابا غريغوريوس الرابع عشر سنة ١٥٨٣ ليدعو الطوائف الشرقية الى معاودة الاتحاد الذي كان قد تمَّ قبلاً سنة ١٤٣٩ و ١٤٤١ . فاذا طالعنا ما اخبر بهِ عن بطريركي الروم في انطاكية واورشليم نجدهُ يذكر بعد ذلك عن البطريرك السابق ميخائيل الحموي المشار اليهِ انهُ اجتمع بهِ مراراً في حلب وعرض عليهِ صورة ايمان الكنيسة الرومانية . قال « فقبلها طواعيةً واقرَّ بها بين يديّ ووقّع عليها بختمهِ وامضآئهِ بتمام المسرة والرضى ووعد ان يسعى كذلك لدى أمتهِ بكل ما في وسعهِ ومقدرتهِ اذا فَسَح الله لهُ في أجلهِ لانهُ كان وقتئذٍ قد بلغ الثمانين من العمر . وكتب متظلماً من سوء معاملة بطاركة الروم لهُ حين سلبوهُ كرسيهُ لغير علة موجبة واصفاً ما تكبدهُ في هذا السبيل من العدآء الشديد واستنجد بالكرسي الرسولي ملتمساً منهُ الاغاثة والمعونة . ولاجل هذا بعث بصورة ايمانهِ وبرسالتين منهُ ايضاً لقداستكم (اي للبابا سيكستس الخامس) وللكردينال سان سيفرينُو حامية الشعب اليوناني (طالع مجلة الشرق المسيحي السنة الثالثة ص ٥ — ٦)

فيتضح لنا من مثل هذه الشهادة التي يغلب ان تكون آخر ما حُفظ من انباء هذا البطريرك لما سبق من هرمهِ وطعنهِ في السن انهُ لم يكن حين لقيهُ ليونار آبل على شيء من الشقاق وبالتالي انهُ اهل لان يُنظم اليوم في سلك البطاركة الكاثوليكيين خلافاً لصنيع المطران عطا وكل من نسج على منوالهِ من الكتبة والمؤرخين

ومن الغريب ان المطران مع شدة حرصهِ على التنقيب عن كل من تُشتمّ منهُ رائحة الميل الى الكرسي الرسولي ليسجّل اسمهُ في صفحات تاريخهِ قد سها كذلك عن ذكر البطاركة الذين صرّح التختيكون بكاثوليكيتهم نظير اغابيوس الاول ويوحنا الرابع وهما الخامس والسبعون والخامس والثمانون من سلسلتهِ وطوى كشحاً عن اسماء آخرين لا تبعد جدًّا نسبة الكثلكة اليهم اذا لم تترجَّح ايضاً . ولكنهُ في ضد ذلك أحصى في جملة الاحبار الكاثوليكيين نفراً من ذوي الاهواء المعروفين بشقاقهم وانحرافهم عن البابوية كالبطريركين دروتاوس الاول الذي عُقد في عهدهِ المجمع الفلورنتيني ومكاريوس الثالث الحلبي الذي تقدم ذكرهُ مراراً في غضون هذا التأليف

وقد كان يكفيهِ للوقوف على حقيقة حال الاول منهما وتعرُّف مذهبهِ ان يطالع ما ورد عنهُ في كتاب التختيكون الذي اقرّ فيما سبق من كلامهِ انهُ كان المورد الذي استقى منهُ اكثر ما أوعبهُ في حوض جداولهِ فانهُ لو فعل وأتى على ترجمتهِ باسرها لقرأ فيها جلياً بعد حكاية ما هو مشهور من موافقتهِ على المجمع الموما اليهِ خبر انقلابهِ على الاثر وسفرهِ اولاً الى اورشليم حيث تواطأ مع البطريرك فيها على انكار المجمع الفلورنتيني وعزل البطريرك

مطروفانس ثم الى القسطنطينية « لان المشاقين دعوهُ لتلك المدينة لكي يعملوا مجمعاً ضد الكاثوليكيين وبالخصوص ضد غريغوريوس الذي تولى الكرسي القسطنطيني بعد مطروفانس وكان مجاهداً عظيماً لاجل الاتحاد . ففي هذا المجمع الردي طرح دروثاوس مع بقية المشاقين الحرم على المجمع المسكوني الفلورنتيني وعلى الكنيسة الرومانية وعلى البطريرك غريغوريوس والكاثوليكيين جميعاً ثم رجع الى ابرشيتهِ واخذ ينادي فيها بهذا النوع طول حياتهِ » ولكن المطران لم يحفظ من كل هذه الترجمة الا قضية قبول دروثاوس بالاتحاد في بادئ الامر ولم يتذكر من كل ما طالعهُ من تاريخ المجمع المذكور الا اسم روسيتاوس في جملة من ناب فيهِ من الاساقفة عن البطاركة الشرقيين فخلط بينهُ و بين البطريرك الانطاكي ودعا هذا باسم ذاك بعد ان صحَّف الاسم الى دوسيطيانوس كعادتهِ في تحريف اكثر ما يقع تحت قلمهِ . ولم يكتفِ باطلاق هذه التسمية عليهِ في تأريخهِ للبطاركة حتى أوهم بعض من كتب عنهم بعدهُ ان دوسيطيانوس ودروثاوس اسمان لمسميَّين مختلفين و بذلك زاد في طنبور البطاركة نغمةً جديدة بل نقلها كذلك في كلامهِ على المجامع في صدر الجدول الخامس ورواها بهذا التصحيف ايضاً في ما نقلهُ من خطاب البابا بناديكتوس الرابع عشر حين تثبيت بطريركية كيرلس طاناس (طالع ص ٥ من المختصر المطبوع)

واما مكاريوس الحلبي فغاية ما استند عليهِ في الحاقهِ بعداد البطاركة الكاثوليكيين ثلاثة امور وهي اولاً انهُ « كتب منشوراً بهِ يرفض معتقدات البروتستانت اللوتاريين والكلفينيين الذي كان يجتهد بان يدخلها في الكنيسة

الشرقية الضالّ لوكاريوس البطريرك القسطنطيني سنة ١٦٢٣ » ثانياً انهُ «في منشورهِ المقدم ذكرهُ اوضح المعتقد في سر القربان المقدس وفي الاستحالة الجوهرية نظير اعتقاد الكنيسة الرومانية » ثالثاً انهُ « ارسل شهادة الى لودفيكس الرابع عشر ملك فرنسا بها يكذب اولئك الاراتقة البروتسطانت الذين كانوا يدعون ان اعتقاد الروم يطابق اعتقادهم الردي » واستنتج من هذه المقدمات انهُ « كان يحترم تحديدات المجمع الفلورنتيني بالخمس قضايا ويحامي عنها ولكن لم يتظاهر بذلك كما يجب » ثم اضاف الى ما سبق انهُ «في سنة ١٦٧٠ ذهب الى مدينة حلب وبحضورهِ وتحريضهِ رفض اندراوس مطران اليعاقبة في حلب الهرتقة واتحد مع الكنيسة المقدسة وقدم صورة امانتهِ الكاثوليكية للمرسلين لكي يرسلوها الى البابا الروماني »

وهذا الكلام باسرهِ يكاد يكون مأخوذاً بالحرف عن صاحب التختيكون الذي نقل ايضاً قسماً منهُ عن مؤلف كتاب الشرق المسيحي . على ان الاب لوكيان لم يذكر ان البطريرك مكاريوس هو الذي اقنع المطران اندراوس بالتحوّل عن يعقوبيّتهِ ولكنهُ حكى عنهُ انهُ هو نفسهُ دخل في الكثلكة مع المطران المشار اليهِ وخجادور جاثليق ارمينية وذلك في وقت واحد هو فيما نقلهُ عام ١٦٤٦[1] بدلاً من ١٦٧٠ كما روى القس يوحنا العجيمي وقلّدهُ فيهِ المطران عطا . وعلى ذلك فيكون هذا الاهتداء الموهوم قد تمّ بعد بطريركية مكاريوس بثلاث سنين لان الاب لوكيان زعم في ترجمتهِ انهُ تبوأ الكرسي الانطاكي سنة ١٦٤٣ وتبعهُ في هذا الخطإ ايضاً

(١) Oriens Christianus t. II col. 774

مؤلف التختيكون فكتب على أثره ان مكاريوس الثالث « ذهب الى القسطنطينية وارتسم بطريركاً وعزل افتيشيوس من الكرسي بأمر الدولة العلية في ابتداء سنة الف وستماية وثلاث واربعين » والصحيح ان افتيشيوس أو بالحري افتيموس المعروف بالصاقسي لم يُعزل قط وانما ادركتهُ الوفاة وهو في منصبهِ على اثر داء عُضال أودى بحياته في ليلة ١١ تشرين الاول سنة ١٦٤٨ كما اخبر عنهُ الشماس بولس الحلبي في كتاب سفرة والدهِ الى البلاد المسيحية. وكان لما احسَّ بدنو أجلهِ قد اشار بانتخاب ملاتيوس مطران حلب خليفةً لهُ وهو الذي دُعي باسم البطريرك مكاريوس الثالث واحتُفل في تنصيبهِ في دمشق في ١٢ كانون اول سنة ٧١٥٦ للخليقة اي سنة ١٦٤٨ للميلاد كما نصّ على ذلك هو وابنهُ الشماس بولس المومأ اليهِ في عدة مواضع من كتبهما

واما ما استظهر بهِ القس العجيمي والمطران عطا على اثبات كاثوليكية هذا البطريرك فهو ما لم ينفرد بهِ وحدهُ ولكن سبقهُ اليهِ وشاركهُ فيهِ ايضاً غيرهُ من بطاركة الروم في القسطنطينية والاسكندرية واورشليم وقد عدَّ منهم التختيكون نفسهُ برثانيوس ويوانيكيوس وبائيسيوس ودوسيتاوس وكلهم « اوضحوا المعتقد في سرّ القربان المقدس وفي الاستحالة الجوهرية نظير اعتقاد الكنيسة الرومانية » ومع ذلك لم يُنقَل عن احد منهم انهُ كان كاثوليكياً بسبب هذا الايضاح . بل ان للبطريرك نكتاريوس الاورشليمي جواباً في هذا الصدد اوعبهُ قدحاً وطعناً في الكنيسة اللاتينية ولكنهُ طابق فيهِ على رأيها في القربان والاستحالة مطابقةً دلَّت على ما رسخ في نفس الكنيسة

اليونانية من الايمان القويم بهذه العقيدة[1] . فهل يصحُّ لمجرد موافقة هذا البطريرك في هذه القضية الخاصة ان يُعدَّ كاثوليكيًّا من اجلها ولا يكترث بسائر مخالفاته ومثالبه للبيعة الرومانية . ومثل ذلك ايضاً يقال في الشهادة التي بعث بها مكاريوس المذكور الى لويس الرابع عشر ملك فرنسا دحضاً لمزاعم البروتستانت الذين كانوا يشيعون وقتئذٍ ان الروم يذهبون الى مثل مذهبهم في القربان فانها ليست بالوحيدة التي أُرسل بها في ذلك العهد الى الملك المشار اليه . بل هنالك نظائر لها كان اعظمها اهمية واجلها قيمةً الشهادة التي سجَّلها البطريرك دوسيتاوس الاورشليمي في مجمع خاصّ عقدهُ لهذه النية في ٢٠ اذار سنة ١٦٧٢ وحضرهُ سالفهُ البطريرك نكتاريوس وعدة من مطارنة الكرسي واساقفته ورؤساء الديارات وسائر ارباب الخطط والوظائف الكهنوتية في فلسطين وكلهم معروفون بانحرافهم عن الكنيسة الرومانية ومع ذلك لم يخطر قط في بال احد ان يعزو اليهم الكثلكة لهذا الاجتماع الذي تعمدوا بهِ خاصةً مناقضة الكلفينيين الفرنسويين ومشايعة علماء اللاهوت الكاثوليكيين

وبعد فلستُ ادري كيف ساغ لمؤلف التختيكون إثبات كثلكة البطريرك مكاريوس الحلبي مع معرفته بموافقته على كتاب بطرس موجيلا الروسي مطران كياف المسمّى قرار الكنيسة الشرقية وحضوره عدة مجامع غير كاثوليكية في اسفاره الى القسطنطينية و بلغاريا والفلاخ والبغدان والكرج وروسيا كما روى عنهُ ابنهُ الشماس بولس واقرّ بهِ هو نفسهُ في بعض

---

(١) Arnauld, perpétuité de la foi t, III éd. 1713 p. 652

مؤلفاتهِ . ولقد رحل الى تلك البلاد مرتين الاولى سنة ١٦٥٢ بلغ فيها مدينة موسكا بعد ثلاث سنوات فاجلَّ الملك الكسيوس ميخائيلوفيتش وفادتهُ ووصلهُ بما وفى بهِ معظم ديون الكرسي . والثانية سنة ١٦٦٦ رجع اليها بدعوةٍ من الملك المذكور مع غيرهِ من البطاركة والاساقفة اليونانيين لمقاضاة البطريرك نيكون الروسي فعقدوا عليهِ مجمعاً خاصاً حكموا فيهِ باسقاطهِ وتجريدهِ من منصبهِ ونظروا في ما كان قد ترجمهُ من الكتب الكنسيّة الى اللغة السلافونية فأقرُّوها على ما هي وسنّوا عدة شرائع وقوانين للبيع والرهبان . فهل يجدر والحالة هذه بمن قعد ذلك المقعد وأبلى مثل هذا البلاء في خدمة الكنيسة الروسية ان يُظن بهِ فيما بعد الوفاق للكرسي الروماني ويُحصى اسمهُ بين مجموع الاحبار المشاركين لهُ في الامانة والاعتقاد

ومع هذا كلهِ فلكيلا تبقى ريبة في نفس احد ممن يؤثر دفع الشقاق عن البطريرك الموما اليهِ بدعوى ان ما ظهر منهُ كذلك لم يكن في الحقيقة سوى تساهل محض اعتاد رجال الطائفتين تبادلهُ قبل الاستقلال كما يمكن استقراء امثالهِ في سيَر كثيرٍ من البطاركة المتأخرين الى حين استبداد اليونان بالكرسي الانطاكي . وبالتالي ان هذا التساهل المصطلح عليهِ وقتئذٍ لا ينفي عن البطريرك مكاريوس الحلبي أنهُ « كان يحترم تحديدات المجمع الفلورنتيني بالخمس قضايا ويحامي عنها » وانما يشهد عليهِ فقط أنهُ « لم يتظاهر بذلك كما يجب » حسبما تقدم من لفظ العجيمي ومقتفيهِ المطران عطا فهذا فصلٌ وقفت عليهِ للبطريرك المذكور شرح فيهِ رأيهُ في القضايا الخمس بغاية ما يمكن من التصريح والجلاء أصبتهُ في خلال مطالعتي مؤلَّفهُ الموسوم

بالنحلة وهو الذي سبق تعريفهُ في خاتمة الجزء الثالث من هذا الكتاب . وقد نقلت كلامهُ فيهِ بالحرف الواحد دون ان اتعرض بشيء الى ما اعتورهُ من نقائص النسخ واغلاط التحريف والتصحيف . وهو احد فصلين وردا لهُ بالمعنى نفسهِ اخترت منهما هذا الثاني لتوسّعهِ ووضوحهِ وان كان في الاول وحدهُ كفايةٌ للمؤرخ وبلاغٌ لقومٍ منصفين قال

الراس التاسع وثلاثون من اجل انشقاق الكنايس

كان في القديم كاهن فاضل لكنيسة رومية يدعى تاوفيلس هذا رمز متنبياً على ما مزمع يصير في كنيسة المسيح واخبر بعض النساك بانهُ نظر الشياطين فرحين مسرورين يرقصون ويزفنون فسألهم عن علة فرحهم فاجابوهُ فرحنا لاجل الانشقاق الصاير بين النصارى لان فرحنا بهِ اكثر من يوم سقوط ادم واكثر من يوم قتل هيرودس للاطفال وقطع راس يوحنا المعمدان فلما سمع ذلك الناسك اغتمَّ وحزن وكتب ذلك لاجل منفعة المؤمنين . وتاوفيلس المذكور ذكر بانهُ مزمع يكونوا عريسين واحد متزوج بالناموس والبركات والاخر بالفسق يعني المنشقين عن الكنيسة . وهذا بلا حلّ بالمسيحيين لما انفصلوا من بعضهم وكلهم يعتقدون بمسيح واحد وانجيل واحد والاعظم من ذلك لما انفصلت كنيسة المشرق من كنيسة المغرب . وبدؤ هذا الانشقاق حدث بعد تجسد المسيح بثمان ماية وثمانية وسبعون سنة لان الفريقين كانوا يمسكوا عللاً باطلة على بعضهم لان اهل رومية كانوا متألمين على خروج الملك من بلدهم واقامتهِ بالقسطنطينية . والثاني لاجل ان القسطنطينية دعوها الآبا في المجمع الثاني رومية الجديدة واخيراً في ايام يوحنا الصوّام بطركها لما دعا ذاته صاحب رومية الجديدة وبطرك المسكونة . وكان وقتئذٍ بابا رومية غريغوريوس الديولوغس لاجل كتابه العظيم الذي مسايل بطرس رئيس شمامستهِ لهُ وتفسيره معناهم فدُعي ديالوغس اي ذي القولين . واهل القسطنطينية اضطربوا كثيرًا لما لاون بابا رومية مسح بالميرون لكارلوس ودعاهُ ملك رومية العظيم . ولم

تكن العادة جارية في رومية بان يمسحوا المتقدم فيها بالميرون لكن بطرك القسطنطينية كان يمسح لملكها بالميرون ويدعوهُ الملك العظيم • وكان بالقسطنطينية اغناتيوس المذكور اعلاه بطركاً هذا لما لم يسمح لفرداس بالزيجة المخالفة للناموس انفاذاً واستحضر صديقهُ فوتيوس اول حمال سيوف الملك وشرطنهُ اغريغوريوس رئيس اساقفة سيراقوصة اول يوم اناغنسط وثاني يوم راهب وثالث يوم ايبودياكن ورابع يوم شماس وخامس يوم كاهن وسادس يوم بطركاً . وبارك على الشعب وكان نهار عيد الميلاد فلاجل ذلك اغتاظ نيقولاوس بابا رومية وعمل عندهُ مجمعاً وقطع فوتيوس لاجل انهُ اخرج بطرك من كرسيهِ وصعد من درجة العلمانيين الى البطركية ولم يصبر على حدود الشرطونيات المرتبة من الآبا القديسين • وذكروا عن هذا اغريغوريوس الذي شرطنهُ بانهُ كان مربوط ولانهُ سمح لفرداس بالزيجة المخالفة للناموس التي احرمهُ اغناتيوس لاجلها • ولكن بعدهُ يوحنا بابا على رومية تواسطوا الشفعا بين الفريقين وتحققت بطركية القسطنطينية لفوتيوس بواسطة البابا يوحنا وباقي البطاركة وجددوا القوانين القديمة بان من الآن وصاعداً لا تصير هذه العادة الردية في كنيسة الله • وهذا فوتيوس كان من نسل الملوك وكان خصياً وحسن السيرة جداً ومعلماً فاضلاً • هذا في ايامهِ كانوا امة البلغر يعبدون الاصنام من قديم زمانهم وكانوا دائماً يحاربون الروم وان ملكهم وقتئذٍ ابتنى لهُ بلاطاً واحضر متوديوس المسيحي المصور ليصوّرهُ ويزخرفهُ بوحوش وطيور وازهار فعمل بخلاف ما امرهُ وصوّر لهُ يوم الدينونة والحساب • الصالحين في الملكوت والخطاة في الجحيم • فلما تمّ ذلك حضر الملك ليشاهد التصوير فرآهُ قد صورهُ بخلاف ما ارادهُ هو فسألهُ لماذا فعلت هكذا وما هو تفسير هذا وانه فسر لهُ كل تلك الاشياء • فللوقت تخشع الملك وانار الله ذهنهُ وارسل يطلب المعمودية هو وكل امتهِ فسمع بذلك البطريرك فوتيوس وبابا رومية وارسلوا من قبلهم روساء كهنة وكهنة ليعمدوا ملك الفلغار وساير امته لان فوتيوس قال هولا الينا ومن ابرشيتنا والبابا قال انا المتقدم في البطاركة فلما ذهبوا جماعتهم لم يتفقوا في عمادهم بل كانوا يخاصموا بعضهم بعض وجماعة البابا ما قبلوا

بمعمودية جماعة البطرك لكن كانوا يعيدوا عمادهم . القديس ديونيسيوس قال العماد للكهنة والميرون لروسآء الكهنة والذين عمدوهم جماعة البابا كانوا اولائك يعيدوا عمادهم وكل منهم كان يقول ابرشية هولآء لنا وان فوتيوس ارسل الى ساير روسآء الكهنة بان يجتمعوا عندهُ ليوطد المجمع السابع لان بعضهم ما كانوا يقبلوهُ ولما حضروا عندهُ وبحثوا عن الامانة المستقيمة فوجدوا البابا واساقفة المغرب قد احدثوا امور جديدة في باب الديانة مثل انبثاق الروح القدس من الآب والابن فحتم هذا فوتيوس وساير مجمعهِ وانفصلوا من البابا واساقفتهِ ومن ذلك الوقت بدا الانشقاق بين الروم والافرنج كما يشهد بهذا البابا نيقولاس الخامس في رسالتهِ الاخيرة الى ملك الروم قسطنطين البالاولغس لما ارسل لهُ يطلب الاتحاد بالروم وطلب منهُ ثلثة اشيا تقبلها الروم . الاولى بان يكون البابا هو المتقدم في البطاركة وروسآء الكهنة وان يذكر اسم البابا في الدبتيخا مع البطاركة في ساير القداسات الالهية وان الملك سمح بهذه لاجل اتحاد كنيسة المشرق مع المغرب لاجل المحبة والاتفاق ثم بعده انفصلوا وانشقوا و بعد مدة اتفقوا واتحدوا . ولما البابا لاون مسح بالميرون لكارلوس ودعاهُ الملك المعظم برومية صار ايضاً انشقاق لان اهل القسطنطينية إغتاظوا كثيرًا وفي ايام هذا كارلوس ابتدأوا معلمين الافرنج يكرزوا بان يكون خبز قربان المقدس فطير والروح القدس منبثق من الاب والابن وابتدآء ذلك كان من بلاد غاليّاس . واخبر المؤرخ يولينوس بان صار بين الروم والافرنج سبعة دفعات اتحاد وانشقاق وذلك قبل المجمع الثامن . وكانوا دائماً غير متفقين ومن هذه الشرارة الصغيرة التهبت بينهم نيران عظيمة وكانوا يراسلوا بعضهم بعض بربوات شتايم ويكتبوا بالضد الواحد للآخر وثبت ذلك بينهم الى الابد ولم يوجد من يطفي اللهيب والجهتين ينظروا بعضهم بالاحتراق وليس لهم همة بازالة هذا الانشقاق والعناد الفارغ بهذه الخمسة اشيا التي ابتدعوها الافرنج وبها تزول كل الشكوك وهي (انبثاق الروح القدس من الآب والابن) والمسيح قال بانجيل يوحنا الروح القدس المنبثق من الآب (والثانية الفطير والخمير) وذلك العشا الذي اكلهُ المسيح مع تلاميذهِ في مسآء الخميس

العظيم خبزًا وليس فطير . والانجيلي قال انهُ اخذ خبزًا وكسر وناولهم ولم يقل فطيرًا لان الخبز كامل والفطير ناقص (والثالثة من اجل تقدم البابا) لاجل انها رومية القديمة والقسطنطينية رومية الجديدة فلهُ التقدم كمثل خمسة اخوة وهو اكبرهم بالسن وليس بالرتبة والسلطان لانهم في المرتبة سوية كمثل بطرس و بقية الرسل الذين اوعدهم المسيح بان يجلسوا على اثني عشر كرسي و يدينوا اسباط اسرائيل (والرابعة فهي من اجل حظوة القديسين) والافرنج يقولوا بانهم قد حظيوا وكملوا وهذا ليس بصواب لان بولص الرسول يقول عن القديسين لم يكملوا خلوًا منا (والخامسة فهي المطهر) والانجيلي متى اخبرنا بان الرب قال الصديقين يرثون الملكوت المؤبد والخطاة العذاب الدايم واخبرنا بان مكانين فقط مستعدة للصديقين والخطاة وليس هم ثلاثة كما قالوا اهل المغرب فاعلم بانهُ كما في السما كوكب يزيد لمعانهُ على الآخر فكذلك اماكن الصديقين والخطاة . و بعض المسيحيين اذا توفى بغتةً وربما كان عليهِ خطايا وما اعترف بها أو اعترف ولم يعمل قانونها فيذهب بعد مماتهِ الى مكانٍ مظلم فبوساطة القداسات والصلوات والصدقات الصايرة عن نفسهِ ينتقل من الظلمة الى النور واذا ما وجد احد يعمل عنهُ فان الكنيسة تصلي من اجلهِ في كافة ايام السبوت والكنيسة دائمًا تبتهل (ايها المخلص نيح نفوس الراقدين في راحتك مع ارواح الصديقين واحفظها للحياة السعيدة) وايضًا (حيث جميع القديسين يستريحون) فلاجل هذه الخمسة اشيا المذكورة آنفًا صاير بينهم الانشقاق وقال كافاديس المعلم لاجل اتحاد البيعة بان لغة الافرنجية ضيقة لان الافرنج ليس يقدروا يقولوا اكبورفسوس اي المنبثق من الاب فيقولوا ديا اي لاجل الاب . فاذا تنازلوا الفريقين وعملوا محبة وطردوا العداوة القديمة وخزوا الشيطان واحبوا بعضهم حسب وصية المسيح فانهم يتحدون ويرضون المسيح بذلك

وغنيٌّ عن البيان ان من كان مثل هذا الاعتقاد اعتقادهُ لم يبقَ سبيل الى اتهامهِ بشيء من المشايعة للكنيسة الرومانية وان كان في بعض اقوالهِ

واميالهِ من اللين والتسامح مايشبه ان يكون تقرّباً منها . وانما ذلك كما سبق خلق كان غالباً في ذلك العهد على اكثر ارباب الكهنوت في الابرشية الانطاكية ولم ينقلب الى التعصب والعداء الا منذ تمكن رجال الفنار من الاستئثار بمعظم المناصب فيها وسوّلوا لاول صنائعهم البطريرك سلفستروس القبرصي وخلفائهِ من بعدهِ ارتكاب تلك المظالم والمحارم ونفث تلك السموم والضغائن التي نشأ عنها انشقاق الطائفة الواحدة الى شطرين متميّزين وكانت يد الدخيل فيها اعظم الاسباب التي حالت دون كل انضمام منها تحت جناح اساقفتها الوطنيين

وبقي ايضاً في غير ما تقدم مواضع كثيرة يمكن انتقادها على المطران في ما نقلهُ من اخبار البطاركة الكاثوليكيين وانما اوردنا امثلةً يسيرةً دلالةً على ما في هذا الجدول الثاني خاصةً من الوهم والخلط والإفساد في التاريخيات ولو شئنا تتبّع سائرها للزمنا معارضة هذا الجزء من كتابهِ بجزء نظيرهِ تُستوعب فيهِ كل المآخذ والاغلاط التي يسهل نعيها على مثلهِ ممن تصدّوا للتدوين والتأليف على غير جدارةٍ واضطلاع وهو ما لا سبيل اليهِ في هذه الصفحات . ولكننا لا نجد بدًّا قبل الانتقال عن هذا الفصل من الاستدراك ايضاً على ما نقلهُ في ترجمة غبطة السيد بطرس الجريجيري التي ختم بها سلسلة التراجم الكاثوليكية فانهُ بعد ان ذكر انتخابهُ بطريركاً في ٢٤ شباط سنة ١٨٩٨ قال بلفظهِ الحرفيّ « فالسيد بطرس ولد في مدينة زحلة في ٦ آب سنة ١٨٤١ فهذّبهُ السيد باسيليوس شاهيات الحلبي راعي الابرشية واذ رأى فيهِ مخايل النجابة رقّاهُ في ١٦ اذار سنة ١٨٦٢ الى الدرجة الكهنوتية في كاتدرائية

الروم الكاثوليك في بيروت . وفي تلك الاثناء سافر الى بغداد والبلاد الداخلية لخدمة الرسالة والدين وبعد رجوعهِ دخل مدرسة الآباء اليسوعيين في غزير فتلقى اللغة الفرنسية وبعض علوم .... وفي سنة ١٨٧١ عاد الى زحلة .... واتقن اللغة العربية حتى صار من كتابها المعدودين وما زال يسعى في ادراك العلوم العالية حتى نال المرام فسافر عام ١٨٧٤ الى مدينة بلوى من اعمال فرنسا ودخل مدرستها الكهنوتية الكبرى وتابع درس العلوم العالية وهي الفلسفة العقلية واللاهوت النظري والادبي والحق القانوني وتفسير الكتاب المقدس فأتقنها واتمّ ما ينقصهُ من اللغتين اليونانية واللاتينية وبرع في الفرنسية حتى صار يلقي بها الخطب والمواعظ بفصاحتهِ المعهودة في كنائس فرنسا الكبرى . »

ولا يخفى ما في هذه الرواية من الدعوى والتمويه فضلاً عن مخالفتها للواقع الصحيح فان السيد بطرس لم يتهذب قط في زحلة عند راعيها باسيليوس شاهيات وهو لم يرقّهِ البتة اذ رأى فيهِ مخايل النجابة . وانما كان الجريجيري في الحقيقة تلميذاً للآباء اليسوعيين في مدرستهم في غزير ثم معلماً للصبيان في احد كتاتيبهم في زحلة . ولم يتفق لهُ الدخول في سلك الكهنوت الا تلبيةً لدعوة الاب بلغراف اليسوعي اليهودي الاصل حين زيّن لهُ مرافقتهُ في رحلتهِ المشهورة الى اواسط بلاد العرب وهو المعروف في هذه الديار بالاب ميخائيل الهندي أو الاب كوهين . وكان رئيس الرهبانية العام قد اشترط عليهِ قبل الترخيص ان يستصحب في سفرهِ الشاسع احد الكهنة فلم يجد بعد رجوعهِ من حماة واعتلال صحة صاحبهِ الاول الاخ الياس

من يرضى بمشاركته في اقتحام اخطار تلك الرحلة سوى المعلم المذكور فلقنّهُ على عجل شيئاً من اللاهوت والتمس من المرحوم باسيليوس شاهيات اسقف زحلة ان يرسمهُ كاهناً فأجابهُ الى طلبه كما يشهد بذلك ما ورد في هذا الباب للاب جوليان اليسوعي في غضون كلامه عن الاب كوهين المشار اليه في احد مؤلفاته الحديثة . فانهُ بعد ان ذكر إيابهُ من حماة الى بيروت قال ما تعريبهُ

« وفيها (اي في بيروت) وجد امراً جديداً من رئيسه الاول يحتم عليه به ان يستصحب احد الكهنة ولم يكن بين كل الموجودين منهم في الرسالة فرنسويين وطليانًا كاهن سواهُ يرجو نظيرهُ ان يُعتبر غداً بين العرب الذين عُقدت النية على زيارتهم كانهُ بعض السوريين الوطنيين . ومعلومٌ ما لهذا الاعتبار من الاهمية لنجاح المسعى وسلامة الطريق بخلاف الاوربي الذي يكون عرضةً لتهمة التجسُّس القبيح . ففي مثل هذه الحال كاشف الاب كوهين أحد معلمي مكتبنا في زحلة وتلميذ مدرستنا في غزير سابقاً وهو شاب ذو إقدام وفطنة ولكنهُ كان عامياً بعد فعلّمهُ في بضعة ايام ما تيسَّر من آداب الدين وسأل اسقف زحلة للروم الكاثوليك ان يمنحهُ الكهنوت ففعل . ولا بأس ان نبتسر الخبر فنقول مذ الآن ان هذا الكاهن الشاب بعد عودته من السفر انطلق الى مدرسة بلوى الاكليريكية وكانت يومئذٍ بادارة اليسوعيين فتلقى فيها دروس اللاهوت وانهُ هو هو اليوم غبطة السيد الجريجيري بطريرك الروم الملكيين »[1]

(١) La nouvelle mission de la Compangnie de Jésus en Syrie (1831-1895) t II p. 39 - 40,

وبعد ان شرح الاب جوليان اجمالاً بعض اخبار هذه الرسالة وكيف انتهى امرها بالفشل والاخفاق واشار الى ما اعقبتهُ بالعكس في نفس الكاهنين ولا سيما اليسوعي من ضعف العقيدة والتسامح في الدين والانكار والجحود غير مرة (ص ٤٠) ذكر ان الاب كوهين لم يلبث غب سنة ونيف قضاها في الرهبانية متذبذباً في الدعوة ان انطلق الى برلين في شهر تشرين الثاني سنة ١٨٦٤ ومرق فيها من الكثلكة الى البروتستانية طمعاً في بعض المناصب والاغراض الدنيوية وقفّى على اثر ذلك بالزواج ايضاً كما يفعل عادةً كل خالعي الكهنوت

وقد دوّن تفاصيل رحلتهِ هذه في مجلدين نشرهما بالانكليزية سنة ١٨٦٥ وفيهما كل فائدة ونادرة[١] ثم تُرجما الى الفرنسوية في السنة التالية[٢] ولُخّصّ عنهما عدة مختصرات مختلفة . واما تلميذهُ في التطوّح الى الآفاق وخرّيجهُ في آداب الدين فمع كونهِ اصبح بعد رجوعهِ من كتاب العربية المعدودين وخطباء الفرنسوية البارعين كما سلف من كلام المطران عطا فلم يخطر لهُ قط ان يخطب يوماً على احدى المطابع خدمةً للعلم شيئاً مما لاقاهُ وشاهدهُ في تلك البلاد العذراء لكراهتهِ دون شك الاقرار بالحقيقة ورغبتهِ في تناسي ما جرى حسبما اشار الى ذلك ايضاً الاب جوليان (ص ٤١) . ولما كانت اخبارهُ ووقائعهُ في تلك الرحلة متعلقة بأخبار استاذهِ وليم پلغراف وكان هذا

---

(١) Narrative of a year's journey through Central and Eastern Arabia (1862-63) 2 vol. London. 1865

(٢) Une année de voyage dans l'Arabie Cenntrale (1862-1863) traduit avec l'autorisation de l'auteur par Emile Jonveaux. Paris. (Hachette).

قد نقل نبذاً خاصةً منها في كتابهِ فضلاً عن سائر الحوادث والاحوال التي اشترك فيها كل من الرفيقين وهي كما لا يخفى تصلح للحكم على كليهما بالسواء فقد بدا لي وفاءً لحق التاريخ وحرصاً على الفوائد الجغرافية المودعة في تلك الرحلة المبتكرة ان اتدارك هذه الثلمة التي غادرها في ترجمة غبطتهِ كل من كتب عنهُ شيئاً بعد توليّهِ بطريركية طائفتهِ والخص قليلاً عن النسخة الفرنسوية التي وقعت اليَّ بعض اعمالهِ الرسولية التي ذكر المطران انهُ خدم بها الدين

كان سفر الكاهنين ميخائيل الهندي أو الشيخ سليم ابي محمود العيس والجريجيري أو بركات الشامي في ١٦ حزيران سنة ١٨٦٢ من بلدة معان عن طريق غزة وقد تزيّا كلٌّ منهما بزي اهل الطبقة الوسطى في الشام واقتعد بعيراً أوسقهُ ما استطاع من الانسجة والالبسة وسائر البضائع المختلفة التي يستبضع بها عادةً تجار العرب وخبأ تحتها في اسفل الجوالق بعض العقاقير والادوية والادوات والمؤلفات الطبية الضرورية لمثل تلك الطية البعيدة (المجلد الاول ص ١١ — ١٢) واما آلات الكهنوت ومقتضيات التبشير والرسالة فلم يكن معهما منها الا سبحة طويلة في اليد كانت تقوم لهما مقام كتاب فروض الصلاة المعروف بالسواعية أو كتاب الساعات . وكان الشيخ سليم ابو محمود يمثل طبيباً دمشقياً اقبل يجوب البلاد لمداواة الاسقام طلباً للرزق والبحث عن بعض الحشائش والنباتات خدمةً للعلم . واما اخوهُ في المسيح الشيخ بركات فكان يدّعي تارةً انهُ تاجر متجوّل وتارةً اخرى انهُ تلميذٌ لهُ أو شريك (ص ١١ و ١٣١)

وبعد ان مضى على الشيخين ثمانية ايام كاملة كانا يصلان فيها السير بالسُرى وسط بيداء محرقة تجرّعا فيها غصص المنون بلغا في ٢٤ حزيران الوادي المعروف بوادي السرحان وهو اول ما يطأهُ القادم الى ولاية طلال ابن الرشيد امير شمّر وفي ٢٩ منهُ انتهيا الى قرية جون من ارض الجوف. وكانا في الطريق قد مرّا بقبيلتي الشرارات والعزّام وقضيا بينهما ثلاثة ايام كانت كافيةً لاحباط كل امل لهما في ادراك المراد من قدومهما. ولذلك ما عتم بلغراف ان كتب منذ الفصل الاول من كتابهِ ما تعريبهُ « انا ورفيقي كنا قد تحققنا من قبل ان كل جهد نبذلهُ ما بين اهل البادية لاتمام رسالتنا وبلوغ الغاية من رحلتنا يذهب سُدًى دون طائل. ولذلك كنا نتوق شديداً الى البلاد المأهولة التي كان البدو يقالون لنا في وصفها وتعظيمها (ص ٤٠) ولكنهما ما كادا يصلان الى الحواضر حتى تخلّيا سريعاً ليس فقط عن كل طمع لهما في ربح شيء للرسالة بل تعدّيا رويداً رويداً الى اتلاف بعض رأس مالهما ايضاً من الدين وآدابهِ. ففي الجوف اولاً لم يخفيا نصرانيتهما عن احد[1] (ص ٧١) بيد انهما تسامحا مراراً كثيرة في سماع الفحش وشهود ما لا يليق (ص ٧٩) واوشكا لولا تمكن العفاف منهما ان يفتتنا

---

(١) روى بلغراف في المجلد الاول من رحلته (ص ٦١) ان سكان الجوف بحسب التقاليد القديمة كانوا في الاصل من نصارى قبيلة طيئ واستنتج مما كان يعلمهُ عن هذه القبيلة مع ما وجدهُ ايضاً من بعض الشبه بينهم وبينها في الاخلاق والعادات ان هذه النسبة لا تبعد عن الصحة . ولما زار حموداً والي مدينة الجوف في مقامهِ في القلعة رأى في احد جدرانها صليبين منقوشين في الحجر تظهر عليهما آثار القِدم واستشهد بهما ايضاً على تأييد مدعاهُ

بمحاسن من عُرِض عليهما الزواج بهنّ كما اقرّ بذلك بلغراف نفسهُ (ص ٨٠).
وفي الثامن عشر من تموز خرجا من الجوف قاصدين مدينة حايل حاضرة جبل شمّر ولما وصلا الى بئر شقيق في العشرين منهُ استقبلهما قفر قاتم موحش زاخر بالرمال يُدعى عندهم نفوداً لا يتبين فيهِ اثر انسان ولا وطأة حيوان فكادا يهلكان من الجهد والعطش واستولى عليهما اليأس والانقباض حتى اذا اشرفا على آخرهِ ابصرا عصافير تصدح فوق عوسجة عند قارعة الطريق فاستبشرا بالفرج والنجاة وغلب الفرح على بركات فلم يتمالك من البكاء (ص ٩١) وكان وصولهما الى حايل في ٢٧ تموز واميرها اذ ذاك طلال ابن الرشيد فحظيا لديهِ وبقيا كذلك كل ايامهما عندهُ غير متنكرين ولكنهما ما لبثا ان أنِسا بالاسلام وشعائرهِ وجعلا يترددان حيناً بعد حين على المسجد الجامع (ص ١٦٠)

وقد اعتذر بلغراف مرة عن مثل هذا التصرف المنكر بدعواهُ « ان حُرفآء الطبيب لا يكترثون كثيراً بمعتقدهِ وانما يهمّهم منهُ فقط ان تكون ادويتهُ ناجعة » وبعد ان ابان بهذا الكلام وامثالهِ عما اصبح يذهب اليهِ هو ورفيقهُ من التسامح المطلق في الدين قال ايضاً وهو منتهى الغرابة والشذوذ «ان السجود في هيكل باعال امر شديد الحرج لا يحل الا في احوال نادرة جدًّا » (ص ٢٣٣) وحسبنا هذا القول مثالاً من اللاهوت الذي كان يتدارسهُ ذانك الكاهنان في تلك الرسالة المسيحية

وكان مقامهما في حاضرة ابن الرشيد الى الثامن من شهر ايلول وبعد ان كاشفاهُ بالغاية الحقيقية من مجيئهما واستمدا منهُ جوازاً للطريق خرجا

في رفقة تؤم مدينة بريدة من مدن القصيم فقطعا جبل أجأ واجتازا قريباً من السفح الشرقي من جبل سُلمى بالقبر المنسوب فيما يقال الى حاتم طي المشهور . وفي صباح العاشر من الشهر غادرا قرية فَيْد التي ذكرها الحريري في مقامته الكوفية واقبلا يتنقلان في قرى القصيم الاعلى واعماله فاجتابا ثمانياً منهما وأناخا في اربع اخرى حتى بلغا بلدة كُوارة وهي آخر النخوم الجنوبية التي تنتهي عندها ولاية ابن الرشيد . وانفصلا عنها في الخامس عشر فالمّا يسيراً بمدينة عيون وتابعا المسير الى ان ادركا مدينة بريدة فالقيا فيها العصا اياماً ريثما تهيأ لهما دليل الى رياض حاضرة نجد في ذلك العهد وقصبة المملكة الوهابية

واتفق خروجهما من بريدة صحبة النائب محمد علي الشيرازي امير الحاجّ الفارسيّ وذلك في ثالث تشرين الاول فباتا عند المساء في قرية الرُوَيْضة ثم استأنفا في الغداة المسير الى ان اجتازا قفراً او «نفوداً» آخر كانت الابل ترتطم في رماله احياناً الى بطونها وهبطا منهُ في غورٍ تتصلُ بآخرهِ قرية تسمى واسط لتوسطها بين القصيم والسدير والوشم فاستراحا فيها ساعة وبلغا في حلكة من الليل مدينة زُلفى بعد اللتيا والتي . وكان على ابوابها خيام مضروبة لبعض من الصُلَيْب قدموا لمبيع صيدهم وهو معظم ما يرتزقون منهُ فزاراهم عند الصباح ووصف بلغراف ما شاهدهُ وعرفهُ من ملامحهم واخلاقهم ونوع معيشتهم (طالع ص ٢٩٥ وقبلها ١٣٦ – ١٣٧) وحكى لطيفةً جرت للنائب محمد علي الشيرازي مع احدى فتياتهم وذكر في هذا الصدد ان نساءهم لا ينتقبنَ البتة ولا يسترنَ وجوههنَّ من احد . ثم اصعدا الى

جبل طُوَيْق وهو الذي دُعي نجد من اجلهِ نجداً لارتفاعهِ واشرافهِ وتضيفنا شيخ الفاط من قرى السدير ورحلا عنها في سابع تشرين الاول فأتيا بلدة مجمعة فالجلاجل واجتازا قريباً من مدينة الروضة وعرّجا على تُوَيم وقريتي حَفَرْ وثُمَيْر وقطعا ثنيَّة الأثلة في جوار يَبْرين وبعد ان قضيا ليلة في ظاهر بلدة صادق مرّا عند الظهر عن يمين الحُولة وخلّفا عدة قرى ومزارع اخرى وفي المساء بلغا مدينة حُرَيْملة مولد محمد بن عبد الوهاب صاحب المذهب المعروف باسمهِ والشائع في تلك الاصقاع

وفي صباح الغد ودّعا ضيفهما حاكم المدينة وانطلقا في وجهتهما فتراءت لهما عند رأد الضحى بلدة سَدُوس وهي حدّ العارض جنوباً فاعرضا عنها وسارا مُنجدَين حتى اشرفا نحو المغيب على وادي حنيفة واخربة عُيَيْنَة فسلكاهُ في جنح الظلام وأدّتهما الطريق سحراً الى قرية الروضة التي جرت عندها قديماً الواقعة المشهورة بين مسيلمة وخالد بن الوليد . ومنها الى قرية المُلَيْقى فمدينة الدرعيَّة حيث شاهدا الابراج والثكنة التي اقامها هنالك ابرهيم باشا المصري يوم قدومهِ لمحاربة عبد الله بن سعود

وكانت الشمس قد جنحت الى الغروب فأرادا ان يقضيا سواد ليلهما فيها فابى الدليل اشفاقاً عليهما من تعصب اهلها وقادهما الى حديقة لعبد الرحمان حفيد محمد بن عبد الوهاب في ضاحية رياض

وقد اطنب بلغراف في وصف هذه المدينة بالنزاهة والنضارة كما تشير الى ذلك تسميتها وحكى ان القادم اليها من الطريق الشمالي يطلّ منها على رياض تفتن الابصار حسناً ورونقاً مما يقصر عنهُ مشهد دمشق من جبل قاسيون .

وكان الدليل قد تقدمهما الى قصر الامارة ليعلم بمكانهما فانتظرا حيناً ريثما خرج اليهما وزير الخارجية عبد العزيز وسألهما عن علة ورودهما الى نجد ولما رفع خبرهما الى الامير فيصل بن سعود صاحب المملكة الوهابية في ذلك العهد تشاءم بقدومهما وقدوم النائب الشيرازي ورفيقيه المكيَّين في مثل ذلك الركب المختلط وكان شيخاً كفيف النظر كثير التطير والتعصب شديد الحذر على نفسه فما عتّم ان خرج خفيةً من المدينة ولجأ الى قصر في ظاهرها لعبد الرحمن الوهابي بعد ان وكل الى عيون وارصاد لهُ في العاصمة مراقبة هؤلاء الاضياف المُريبين ولا سيما الشيخين سليم العيس وبركات الشامي واستطلاع حقيقة شأنهما . فزارهما في اليوم نفسه عبد الحميد فقيه البلاط ثم حبُّوب احد المُدَّعين وهم في نجد كالشُرَط للدين فباحثهما هذا في عقائد الاسلام وسألهما عن بعض مصطلحات اهل دمشق فجاريا هُ في البحث والاستشهاد بآيات الكتاب حتى اوهماهُ انهما حنيفان غير مشركين بالله (المجلد الثاني ص ٢٣ — ٢٤)

وفي اليوم التالي باكراً لقيهما وزير الخارجية عبد العزيز فاشار عليهما بلسان الامير ان يعدلا عن الاقامة في رياض ويتحولا الى حُفْحُف في الأَحساء ووعدهما بصلةٍ وكسوة ومطية فاعتذرا لهُ اعتذاراً جميلاً وعلم الامير فيصل بتمنعهما فازداد ريبةً بهما وتوجساً منهما واوشك لولا واسطة الدليل ابي عيسى ان يأمر بتطهير رياض من اثرهما ولم يرضَ بالاجازة لهما بالبقاء حتى اشتريا شفاعة الوزيرين محبوب وعبد العزيز بهدية من العود حملها عنهما الدليل الى كل منهما . فلما افلتا من الهلاك اجمع رأيهما خشيةً من الوقوع

في ورطة اخرى ان يطلعا الدليل على كنه حالهما ويُفضيا اليهِ بسرّ رحلتهما ليكون لهما عضداً وهادياً في تلك الحاضرة المحفوفة بالمخاطر اذ كانت لهُ معرفةٌ بها وباهلها ودالّةٌ عند وزيرها الاول وغيرهِ من زعماء البلاط . فاشفق ابو عيسى من خفة بركات وقلة دربتهِ واوصاهُ بالرزانة وشدة التوقي حذراً من ان يجرّ على نفسهِ وبالاً (ص ٢٨) وفي الغد اكترى لهما منزلاً بعيداً عن قصر الامير قبل سكانهُ ان يتخلّوا لهما عنهُ مقابلة ست جديدات[1] فقط . فاتخذ الشيخ سليم العيس احدى حجَرهِ مُستوصفاً لهُ وصيدليةً

---

(١) الجديدة فيما ذكر بلغراف ضرب من النقود القديمة اكبر من الفرنك بقليل يُتعامل بها في نجد والعارض والسدير واليمامة وقيمتها غرشان او نحو نصف فرنك . واصلها فيما يظهر من مسكوكات مصر في دولة المماليك كما يستدل من الاثر الباقي من نقشها . وهي مع الريالات الاسبانية القطع الفضية الوحيدة المتداولة في نجد دون غيرها من النقود العثمانية او الاوربية . واما الذهبية فالرائج منها الليرات الانكليزية . وعندهم ايضاً صرف من النحاس مختلف الحجم والشكل يسمونهُ خُردة كان يضرب في البصرة من قرنين او ثلاثة وعليهِ اسم الحاكم في ذلك الوقت وتساوي كل ثلاثين منهُ جديدةً واحدةً . وبخلاف ذلك بلاد الجوف وجبل شمر فانهُ يُنفق فيها كل المسكوكات العثمانية والاوربية التي ترد لها من طريق الشام ومصر وفارس . واما الاحساء فمع انها كانت في عهد المؤلف تابعة لمملكة نجد فلم يكن يروج فيها سوى بعض النقود الفارسية والهندية كالتومان والروبية . ولاهلها في ما عدا ذلك سكة بلدية خاصة يتعاملون بها وتدعى عندهم الطويلة وهي نصال رقيقة من النحاس في طول ابهام مشقوقة من اسفلها قد نُقش على جوانبها بالكوفي اسماء امراء القرامطة الذين ضُربت في ايامهم غير انها عاطلة من التاريخ والشعار ولا يتعدى التعامل بها حدود الأحساء ولذلك يقال عندهم في المثل « زيّ طويلة الأحسا » لمن لا تجاوز شهرتهُ موضعهُ . وكان منها في ما سلف قطع فضية وذهبية ولكنها كسرت كلها من عهد بعيد وأذيبت ولم يبقَ بعدها الا النحاسية فقط وتساوي الثلاثة منها غرشاً واحداً (طالع المجلد الثاني ص ٢٣٠ — ٢٣١)

وتقاسم الدليل و بركات بقية الوظائف والاعمال فولي ابو عيسى امور الخارجية اي استنشآء اخبار المدينة والبلاط والإشادة بذكرهما في الأندية والمجالس وتقلّد بركات زمام المهامّ الداخلية من ابتياع المؤونة والزاد وتهيئة المأكل والمشرب ايضاً عند الحاجة (ص ٤٢)

وبقي الرسولان في رياض زهآء خمسين يوماً حرصا في خلالها كل الحرص على كتمان نصرانيتهما او انكارها حتى كان كل من لقيهما او زارهما لايشك انهما مسلمان من اهل السنّة في دمشق (ص ٧١) ولذلك كانا يشهدان الصلاة والوعظ في الجامع مع الوهابيين ولا سيما الاب كوهين فانهُ لم يدع استماع الخُطَب مرةً واحدة (ص ٨٧ — ٨٩) غير انهما لم يكونا شديدَي المواظبة على تأدية الفرائض في مواقيتها . وكانت عادة العاصمة في ذلك العهد ان يقرأ كل إمام في مُفتتح الصلاة اسمآء المصلّين ليُعرف الغائب و يؤاخَذ على تخلُّفهِ . فاتفق ذات يوم ان المحتسب او مُدَّعي المحلة التي كانا قاطنين فيها رأى ان يكتب اسميهما ايضاً في قائمة المناداة فلما دعاهما الإمام لم يُجب احد الدعوة . فاستشاط المحتسب غضباً وأقبل قُبَيل بزوغ الشمس مع جماعةٍ لهُ بالعصيّ وطرق منزلهما ليُحلّ بهما العقاب الواجب . ولحسن الاتفاق كان الباب وقتئذٍ مغلقاً بالزلاج لانهما كانا مع الدليل جلوساً امام القهوة يدخّنون عليون الصباح والتدخين في نجد معدود من المحرمات والكبائر ولذلك كانا كلما اضطرّا اليهِ يعتزلان الناس ويبالغان في التحفظ والاستخفآء . فلما سمع ابو عيسى صكّة الباب امتُقع لونهُ واستطار جزعاً واشار عليهما ان يتصامّا ويلطوَا في حجرةٍ في مؤخر البيت . قال بلغراف

ولكن بركات أبى بالعكس الا ان يقتحم بوجههِ الخطر فقام الى الباب وفتحهُ واغلقهُ ورآءهُ بعنف دون ان يمكن احداً من الدخول . وبعد هنيهة سمعنا المحتسب يقول لهُ في الشارع لِمَ لم تحضروا صلاة الصبح . فقال لهُ بركات قد صلينا نحن ولسنا بكفار . فظن المدّعي من هذا الجواب الملتبس اننا كنا في الجامع فسألهُ لِمَ لم تلبُّوا الدعآء حينما تليت اسمآؤكم . فاجابهُ بركات على الفور حسبنا انكم معشر الوهابيين لكم عبادات خاصة لا تعني الغربآء فهل يمكننا نحن ان نعلم كل عوائدكم . فقال لهُ المحتسب من كان عن يمينك وقت الصلاة . قال اظنهُ بدوياً وليس عليَّ ان اعرف كل بدو رياض . قال ومن كان عن شمالك . قال الحائط . فلما سمع حاملوا العصيّ هذا الجواب الاخير الذي نطق بهِ بركات دون تكلف ولا توقف لبثوا حيارى لا يدرون ما يفعلون . ثم غلبت عليهم الثقة التي تتولى في مثل هذه الحال كل عربي صحيح فانفضُّوا عن رفيقي بعد ان شدَّدوا عليهِ الوصية بعدم الانقطاع عن اوقات الصلاة . فقال لهم إن شآء الله قولاً صالحاً لا يخلو من الاشتباه (ص ١٦٢ — ١٦٣)

وبمثل هذا التجاهل والانكار تلقَّى الاب كوهين شكوى الامير عبدالله وليّ عهد رياض حينما استدعاهُ اليهِ في ليلةٍ حالكة السواد ونقِم عليهِ ما علمهُ من نصرانيته في مجلس من اعوانهِ شهدهُ بينهم محبوب الوزير الاول . وكان قد رابتهُ منهُ عدة امور اراد لاجلها ان يستوثق منهُ ومن رفيقهِ ويقيدهما لديهِ بالزواج فبعث اليهما اولاً من الالطاف والهدايا بما لم يسبق لهما عهد بمثلهِ ثم تملَّق الطبيب وسألهُ قليلاً من السمّ قيل انهُ كان يبتغي ان

يدسّهُ لاخيهِ سعود لينفرد بالملك بعد وفاة ابيهِ . فأبى پلغراف ان يجيب لهُ طلبةً وامتنع معتذراً . فخنق عليهِ الامير حنقاً شديداً واوشك ان يُوقع بهِ في تلك الليلة لولا رباطة جأشهِ وثبات جنانهِ والجُرأة الغريبة التي ناضل بها عن نفسهِ في حديث طويل أبدع في سياقتهِ وتمثيلهِ غاية الإبداع (ص ١٧٥ — ١٧٩)

وما كاد ينجو من التهلكة حتى ركن الى الفرار سرًّا مع بركات فخرجا من رياض في الرابع والعشرين من شهر تشرين الثاني على حين غفلةٍ من اهلها وادركهما الظهر في الغد عند ابواب مدينة منفوحة فنكبّا عنها ومالا الى مُختبإٍ في وادي سُلَيّ بين الحريق واليمامة فاستترا فيهِ يومين وفي الثالث لحق بهما ابو عيسى يقود قافلةً الى الأحسآء فمرّا معهُ قريباً من سلمية او الخُرْج وهي التي كانت قبلاً قصبة اليمامة في عهد اميرها دعّاس وناخا عند آبار اللقيّات والأُديْسِط ثم اقبلت بهما المطيّ على القفر المشهور بالدهنآء فلم يلقيا فيهِ سوى نفرٍ من آل مُرَّة وهم سكانهُ المتفردون بهِ . وبعد اربعة ايام ذاقا فيها اصناف الشدة والعذاب خرجا من وادي فَرُوق ورَقيا الى ثنيّة الفار فاشرفا على سهول الأحسآء وانحدرا إزآء قرية الغُوَير ومنها الى عين نجم وقريةٍ اخرى حقيرة ودخلا اخيراً قُبيل الفجر مدينة حُفُحُف موطن الدليل ابي عيسى

ولپلغراف في وصف هذه المدينة والكلام على اخلاق اهلها ومنشإهم وشرح حال الأحسآء عامةً وما اختلف عليها من الدول والمذاهب وتاريخ النبَط واللغة النبَطية تفصيلٌ طويل ضمّنهُ فوائد شتى تدل على كثرة اطلاعهِ

ودقة نظره قلّ ان ترى مجموعةً بمثل هذا التوسع والاتّساق في غير هذا المؤلّف النفيس الذي يجدر ان يكون قنية كل من لهُ كلف بتاريخ العرب وجغرافية بلادهم ولذلك نردّ اليه المطالع اللبيب ونجتزئ بالتنبيه على ما ذكرهُ من حال بعض النسآء في جزيرة العرب ليكون قولهُ حجةً جديدةً نضمّها الى ما سبق إيرادهُ من حالهنّ في الشام في ما استشهدنا بهِ من قلة احتفالهن دائمًا بالتنقب والتحجب (الجزء الاول ص ٥٦) ففي نجد اولاً وجد النسآء مقصوراتٍ في البيوت لا يخرجنَ منها الا مستترات متبرقعات لتحريم الوهابية النظر اليهنّ وتشديدها عليهنّ بالقرار في المنازل وملازمة الحجاب . واما في الاحسآء حيث كان المذهب الوهابي قليل الشيوع ضعيف الكلمة فالقناع واشباههُ من أُسُر الحسن واغلال الجمال ليس متحتماً فيها بالاطلاق على كل الحرائر بل هنّ اذا شئنَ يتجاهرنَ احياناً ويبرزنَ الى الزوارِ يحادثنهم دون تحرّج ولا انقباض . ولذلك كان الغريب اذا رآهنّ مرة او جالسهنّ لا يتردَّد عن تفضيلهنّ كثيراً من حيث الادب والرقة على شقيقاتهنّ في السدير والعارض (ص ٢٢٩) ولما زار فيما بعد ناحية عُمان وصف بنآء المنازل فيها واخبر ان غُرَف الحَرَم لا تُرى البتة منفصلةً عن غُرَف الرجال خلافاً لامثالها في اواسط الجزيرة وحتى في الاحسآء والقطيف ايضاً . قال « فالحريم في عُمان مفتوح للاجانب . وللنسآء فيهِ حرّية تكاد تعادل حرّية النسآء الاوربيات فهنّ لسْنَ فيهِ كالدُّمى الصامتة المقنَّعة ولكنهنّ يبرزنَ منهُ متى أَرَدْنَ ولا يتورّعْنَ من ابدآء وجوههنّ ومحادثة الجليس في غالب الاوقات . وعلى هذا الفرق في الاخلاق يترتب فرق آخر في المساكن لا يقلّ عنهُ

اهمية وهو ان الحُجَر فيها لا تُرى شارعةً الى دور متميزة بل يفضي بعضها الى بعض وبدلاً من ان يكون الخوا (اي البهو او الردهة عندهم) موضوعاً في مقدم البيوت لا يكون عادة الا في وَسطها » (ص ٣٦٢ — ٣٦٣)

وبينما كانا في حفحف وقد جلسا يوماً ينقلان قصيدةً من الشعر البلدي اختارها الشيخ سليم العيس وفقدت منهُ نسختها مع بعض اوراق لهُ أُخر حينما غرق بعد بضعة اشهر في البحر الهندي فاجأهما جاسوسان من وهابيّي القلعة في المدينة ليبلوا كُنه حالهما فخرجا اليهما على اتم ما يكون من الهيئة والوقار وافاضا امامهما في الحديث عن الطب والطبائع والدين والوهابية وعزّزا كلامهما بآيات من القرآن حتى انصرف عنهما الجاسوسان دون ان يدريا من امرهما شيئاً (ص ٢٢٢) وبعد نحو ثلاثة اسابيع قضياها في حفحف على غاية من التوفيق والهناء وشهدا في خلالها بعض المواسم في المدينة وقرية مُبرّز من ضاحيتها وزارا بعض الحِمام كأُم سبعة وسُخْنة وهي عيون من الماء الحار تكثر في الأحساء خرجا من حفحف في ١٩ كانون الاول ومرّا في صباح الغد بعقربةٍ من جبل الكلابية وهي قرية بناها في اعلاهُ قوم من بني كلاب ورُفِع لهما عند الزوال جبل المُشهّر فخلّفاهُ في اليوم التالي عن ميامنهما وتوقلا نحو المغيب في جبال القطيف وانتهيا الى المدينة في اليوم الثالث وهي فُرضةٌ على شط خليج العجم كانت قديماً عاصمة القرامطة فاضافهما واليها فرحات في قصرهِ المنسوب فيما يقال الى ابي سعيد الجنابي وفي ٢٣ من الشهر نفسهِ تهيأ لهما مركب متّجه الى البحرين فركباهُ وسار بهما الى قرية سُوَيق ومنها الى مدينة مُحرّق فمنعمّة وهما الجزيرتان المعروفتان بالبحرين

وكان الدليل ابو عيسى قد ضرب لهما موعداً في مدينة منعمة فانتظراهُ فيها اثني عشر يوماً وفي التاسع من كانون الثاني مُفتتَح سنة ١٨٦٣ حضر مع اتباعٍ لهُ وهدايا حملها الى بعض ولاة تلك الانحاء وشيوخها فاجمع رأيهم بعد المداولة ان ينطلق الشيخ سليم وحدهُ صحبة يوسف بن الخميس رسول ابي عيسى الى امير عُمان فيزور تلك الاصقاع ويوافيهم منها الى مدينة ابي شهر حيث يكون بركات مع ابي عيسى لاضطرار هذا الى البقاء فيها زهاء ثلاثة اشهر ريثما يتمكن من جمع الحاج الفارسي وإعداد الأُهَب اللازمة للسفر الى البيت الحرام

وعلى هذا الاتفاق انفصل الرفيقان عن جزيرة منعمة وسار كل منهما في وجهتهِ فخرج الكاهن الجريجيري مع ابي عيسى واتباعهِ في سفينةٍ أقلَّتهم جميعاً في ٢٣ كانون الثاني الى ابي شهر وعاد الاب كوهين وصاحبهُ الجديد يوسف بن الخميس الى جزيرة محرّق ومنها الى ميناء بِدْعة حاضرة القَطَر . وبعد ان زار القطر وعمان ونواحيهُ وكاد يذهب فريسة الامواج قريباً من مسقاط بلغ في سادس نيسان مدينة ابي شهر مريضاً مُدنفاً بالحمّى فحُمِل الى منزل الدليل ابي عيسى . وكان الشيخ بركات قد انطلق الى البصرة فبغداد فتحمل على اثرهِ وهو لا يعي من نَهك العلة ولما نَقَه في البصرة وقارب الشفاء لحق بهِ في بغداد وقفلا راجعين الى بيروت عن طريق كركوك فالموصل فماردين فديار بكر فالرها (أورفا) وبلغاها اخيراً في شهر تموز سنة ١٨٦٣ بعد غياب سنة وشهرين

وكان الاب بلغراف قد سلّم الجريجيري الشاب قبل افتراقهما في البحرين

كل اوراقه وتعليقاته وسائر محفوظاته الثمينة (ص ٢٧٠) وهي التي تمكن بها من كتابة رحلته وان كان قد فاتهُ منها اشياء أُخَر كما اشرنا الى ذلك سابقاً . ولاجرَم انهُ لولا عناية الاب الجريجيري بها وشدة تعهّده وصيانته لها كما انهُ لولا إقدامهُ على مرافقة الاب كوهين وحسن صحبته اياهُ واخلاصه ومعونته لهُ في تلك الشدائد والمهالك المترادفة لما تحقق لنا اليوم مثل ذلك التأليف الفريد وسلمت للعالم اشباه تلك الفوائد الممتعة التي لم يحوِها من قبله كتاب ولا أنضي عن محيّاها نقاب . وهي الخدمة الصحيحة التي اشترك الفتى الجريجيري في تأديتها للعالم الادبي واستحق من اجلها اطيب الحمد والثناء لا الخدمة الاخرى التي ادَّعى لهُ بلديُّهُ المطران عطا وكل من نقل عنهُ انهُ خدم بها الرسالة والدين

الجدول الثالث المختصر

وهو يشتمل كما تقدم القول على اخبار اساقفة الطائفة الملكية منذ سنة ١٦٨٠ الى زمن المؤلف وانما بدأ بهذه السنة دون سواها لأنهُ فيها التأم اول مجمع حضرهُ اعظم اساقفة الكرسي الانطاكي للنظر في تأييد المعتقد الكاثوليكي ونشر كلمته بين الرعية والاتفاق على مكاتبة الحبر الروماني دون مبالاةٍ بسيطرة البطريرك القسطنطيني . وقد كان في دمشق منهُ نسخة محفوظة شاهدها المطران عطا وفقدت في فتنة الستين كما نبَّه على ذلك في صدر الجدول الخامس . وهذا الجزء نظير سابقه في كثرة اللغو والسَقَط وقلة التحقيق والضبط ولا سيما في نصّ الازمنة والتواريخ فربما امات قوماً

قبل وفاتهم وأحيا آخرين بعد مماتهم الى غير ذلك من الاوهام والشوائب التي تتخلل اكثر صفحات هذا الكتاب فضلاً عن السفاسف والسخافات التي شغل المؤلف قلمهُ بتدوينها دون تحرّج ولا انقباض وجمع منها امثلةً كافيةً في الكلام على ابرشية حمص وحماة وبيرود

واما نَسْق اسمآء الابرشيات وترتيبها في الذكر فقد اتّبع فيه غالباً صاحب التختيكون في الملحق الذي ذيّل بهِ كتابهُ ودعاهُ « شرح الاقاليم التي للبطريرك الانطاكي » ولكنهُ بدلاً من ان ينقل عنهُ في صدر تاريخهِ لكل ابرشية تفصيل ما كان لها من الاعمال التي كانت تضاف اليها قديماً مع تعيين حدود ما يُستطاع تحديدهُ منها والتنبيه على اسمآئها الحديثة كما فعل القس يوحنا العجيمي في كلامهِ عن مطرانيات صور ودمشق وسلوقية ثم يعارض هذا التفصيل ببيان متعلقاتها الحاضرة بين مدنٍ وقرًى ومزارع بعد تقدير عدد الكنائس والنفوس في كلٍّ منها اقتصر على سرد اسمآء امهات الابرشيات فقط مع ذكر من اتصلت بهِ معرفتهُ من اساقفتها ولم يخرج عن هذا الاقتصار قليلاً الا في تأريخهِ اقليم بيرود

ومن المناقضات التي وردت لهُ في هذا الترتيب عدُّهُ اولاً دمشق ثانية مطرانيات الكرسي الانطاكي ثم ذكرهُ اياها بين القلّيات البطريركية نظير اورشليم والاسكندرية . وانما هي كما كانت ولم تزل في الحقيقة مطرانية شرعية لصاحب كرسيها الاول القديس حنانيا الرسول حسبما تعتبر الى اليوم في سائر البطريركيات الشرقية عند غير اليونان كالسريان والكلدان واللاتين من الكاثوليك واليعاقبة والنساطرة من الارثوذكس . واما مقام البطاركة

فيها في الاعصر المتأخرة فلا يمكن ان ينقض تأسيسها الرسولي او يسلخ عنها حقها القديم لاسيما وانهُ لم يُصحَّح قط بقرار من احد المجامع العامة او الخاصة . وقد اقاموا ايضاً حقبةً من الدهر في غيرها من الابرشيات سواء كان قبل خراب حاضرتهم انطاكية حينما استولى عليها الصليبيون واضطروا الى الاعتزال في القسطنطينية . او عقيب خرابها الاخير على يد الملك الظاهر بيبرس البندقداري والسلطان تيمور من بعدهِ اذ لم يعد سبيل للبقاء فيها فخرجوا عنها ثانيةً وجعلوا يتنقلون بين قبرس وطرابلس وغيرهما الى ان تمَّ لهم اتخاذ دمشق مبآءةً للكرسي على اختلاف بين المؤرخين في تعيين سنة هذا الانتقال بين ان تكون ١٣٦٦ على اثر انتخاب رئيس اساقفتها بخوميوس للخلافة البطريركية وهو الرأي الذي رجَّحهُ الشماس بولس الحلبي بعد البحث والاجتهاد وفاقاً للبطريرك مخائيل الحموي[1] وبين ان تكون ١٥٣٠ في بدء ولاية البطريرك ميخائيل السادس وهو القول الذي ذهب اليهِ الاب لوكيان وصاحب التختيكون[2] وتبعهما فيهِ سائر المؤرخين الكاثوليكيين .

---

(١) ذكر الشماس بولس الحلبي في مقدمة كتابهِ سفرة البطريرك مكاريوس الى البلاد المسيحية انهُ لما صُيّر والدهُ بطريركاً سنة ١٦٤٨ شرع هو في فحص كتب البطريركية من انطاكية الى دمشق للاستقصاء عن اسباب نقل الكرسي من المدينة الاولى الى الثانية فوجد في بعض ما وجدهُ من المخطوطات والمصنفات « كتاباً قديماً جداً تاريخهُ بخط المرحوم البطريرك ميخائيل يقول فيهِ هكذا « بدو ما استقرت البطاركة في دمشق المحروسة انهُ لما توفي البطريرك اغناتيوس في قبرص استقر بعدهُ بخوميوس مطران دمشق بطريركاً مدة سنتين وعزلوهُ فعلى ما يلوح لي انهُ لما تيسر للملك الظاهر الفتوح فرّ المرحوم اغناتيوس من انطاكية بعد فتحها الى قبرص وبها توفي كما ذكر ... »

(٢) يصعب جداً التوفيق ههنا بين ما نقلهُ الشماس بولس الحلبي وما اوردهُ القس

ومع ذلك فلم تضرّ البتة هذه الاقامة بالمدن التي لجأ اليها البطاركة المنتقلون قبلاً ولم تتخذ قط ضياقتهم حجةً لتحويل كراسيها عن وضعها الاصلي وسبباً لسلب حقوق رعاتها الشرعيين . وكذلك قد آثر بعضهم فيما بعد القرن السادس عشر ايضاً سكنى غير دمشق من اسقفيات البطريركية وآخر من اعتزلها منهم قبل تميز الطائفتين البطريرك اثناسيوس الخامس الدباس فانهُ حوّل كرسيّهُ منها الى حلب واستقرّ فيها كل ايام حياتهِ الى ان ادركتهُ المنون في ٢٤ تموز سنة ١٧٢٤ . ولكن استقرارهُ فيها كل تلك المدة وتصرفهُ في كنيستها التصرف المطلق لم يُعتبر كافياً لنسخ مطرانيتها القديمة واستبدالها بالولاية البطريركية . ومع شدة ما كان من محبة الحلبيين لهُ وجميع ما احرزوهُ في اثناء رعايتهِ الوجيزة من الفوائد والعوائد لم يُقعدهم هذا التعلق والانتفاع عن مطالبتهِ برد حقّ كنيستهم الى نصابهِ وارجاع مطرانهم الى كرسيّهِ . ولما شعروا بدنوّ أجلهِ في اوائل شهر تموز من السنة المرقومة حملوهُ على ارسال منشور لراعيهم الشرعي جراسيموس البلمندي في توطيد رعايتهِ عليهم

يوحنا العجيمي في تأريخ البطريركية الانطاكية منذ سنة ١٣٦٦ الى ١٥٣٠ فان الخلاف والتضارب بين الروايتين ذاهبان كل مذهب وعلى الخصوص في تحديد ازمنة الولايات والوفيات على نحو ما تُرى امثالهُ ايضاً حتى في اخبار ما بعد الانتقال . ومن جملة ما انفرد بهِ مؤلف التختيكون ادعاؤهُ ان البطريرك ميخائيل الثاني « توفي في مدينة انطاكية سنة ١٤١٣ » وان دروثاوس الثاني « مات في مدينة دمشق سنة ١٤٨٠ » وان دروثاوس الثالث « اقام قرب سنة في انطاكية ورجع الى القسطنطينية » وان يواكيم الرابع « لم يلبث في انطاكية الا مقدار سنتين ... وقطن مدة زمان في الشام وفي طرابلس وفي القسطنطينية وتوفي سنة ١٥٢٩ » ولا يخفى ان في هذه الاقوال ما اذا ثبتت صحتهُ كان كافياً لدحض رأي الشماس بولس وترجيح خلافهِ

واستدعآئه اليهم . ثم عزّزوا هذه الدعوة برسالة له من امضآء البطريرك نفسه بتاريخ ١٥ من الشهر المذكور الحّ عليه فيها بالقدوم عاجلاً من بعلبك حيث كان مقيماً . ولا شك انهُ لولا مبادرة رعية حلب الى التأليب والمدافعة عن خصائص كنيستها وعدم اغترار رجالها بهذا الربح الذي افادوهُ عرضاً من بطريرك فرد احبهم واحبوهُ لرسخت قدم البطريركية عندهم في حلب واستراحت دمشق من كل تلك الاضرار والخسائر والمحن التي اورثها اياها استيلآء البطاركة عليها منذ انتقالهم المشؤوم من انطاكية الى هذا العهد كما يعلم صحة ذلك كل من صرف النظر الى درس تاريخها وطالع شيئاً من تراجم البطاركة المستقرّين فيها

ومما يشهد بهذا ايضاً ان الحلبيين بعد وفاة البطريرك اثناسيوس الخامس اجتمعوا باتفاق الآبآء والوجهآء بينهم وسجّلوا على نفوسهم ثلاث وثائق تعاهدوا فيها بالاتحاد والتعاضد واشهدوا في الثالثة منها المطران جرمانوس فرحات الماروني على صحة عزمهم وتعاقدهم وكتبوا ما يأتي في جملة ما اشترطوهُ منها « نجتهد بان لا نسلم ان يستولي على كرسي كنيستنا بطريرك عوض المطران حيث ان العادة القديمة الجارية في الابرشية الانطاكية ان كرسي بلدتنا كرسي مطرنية نظير باقي المطرنيات في باقي الابرشية المذكورة فليس للبطريرك ان يستولي عليهِ بذاتهِ متوطناً بالسكنى والاستمرار في مدينتنا حلب المذكورة » (طالع صورة هذه الوثيقة والكتابتين السابقتين في مجموع عجالة راكب الطريق لنعمة بن الخوري توما الحلبي)

واما بعد استقلال الطائفتين فأوحد من اقام في دمشق من البطاركة

الملكيين الكاثوليكيين كيرلس تاناس الحداد لبث فيها نحو ثلاثة اشهر فقط ثم اضطر الى الفرار من وجه المضطهدين فلجأ الى جبل لبنان واتخذ داراً لهُ حذآء دير المخلص قريباً من صيدآء وتتابع خلفآؤهُ من بعدهِ على مثل هذه الحال من التنقل بين دير المخلص المذكور ودير يوحنا الصابغ قرب الشوير ودير القديس سمعان في جوار بيروت ومدرسة عين تراز ودير القديس ميخائيل في الزوق الى ان تهيأ للبطريرك الطيب الذكر مكسيموس مظلوم دخول دمشق بعد مئة وعشر سنوات من انتزاح البطاركة سلفآئهِ عنها اي سنة ١٨٣٤ . وكان اولهم البطريرك كيرلس تاناس قد رسم عليها قبل خروجهِ منها الخوري متوديوس الحلبي المعروف باسم المطران مكاريوس ولكنهُ لم يستطع ان يلبث فيها من ظلم البطريرك الدخيل سلفستروس القبرصي فتحوّل الى قرية يارون في بشرّاي وقضى فيها باقي حياتهِ الى ان استأثر الله بهِ سنة ١٧٤٥ فاستخلف البطريرك كيرلس المذكور على دمشق المطران مكاريوس العجيمي سنة ١٧٥٢ ونقلهُ بعد ذلك الى كرسي عكآء

والظاهر ان رسامة هذين الاسقفين لم تكن على القلّيّة الانطاكية كما ارتأى مؤلف حوض الجداول ومن نسج على منوالهِ ولكن كانت في الغالب على مطرانية دمشق نفسها كما يؤخذ من بعض الكتابات لفراغ كرسيها وقتئذٍ وعدم تمكن البطاركة من الاستيلآء عليهِ رأساً . ومما يدلّ على رجحان هذا القول ان البطريرك اثناسيوس جوهر لما توفي المطران مكاريوس العجيمي السابق الذكر سنة ١٧٦٣ طلبت اليهِ رعية دمشق ان يقيم لها اسقفاً خاصاً يهتمّ بتدبيرها ورعايتها فاختار لها برضًى منها وقبول

كهنتها القس ارسانيوس من بيت كرامة المشهور وكلّف قبل سفره الى رومة من تولى رسامتهُ وهم اندراوس رئيس اساقفة صور وافتيموس اسقف الفرزل والبقاع وجراسيموس اسقف قانا الجليل وغريغوريوس اسقف قارة فاقاموهُ مطراناً على كرسي دمشق الشام ودعي ارميا وذلك بتاريخ ١١ كانون الاول من السنة نفسها اي سنة ١٧٦٣ خلافاً لدعوى من قال ان تسقيفهُ كان على القلّية الانطاكية لتكثير حزب البطريرك اثناسيوس جوهر فقط

وقد اقرّ المطران عطا في تأريخهِ اخبار سنة ١٧٨٧ ان ارميا المشار اليه كان يُدعى مطران الشام واعترف ايضاً في كلامهِ عن مجمع دير المخلص سنة ١٧٩٠ انهُ شاهد النسخة الاصلية من قوانين هذا المجمع فوجد بين تواقيع الاساقفة عليها اسم مطران دمشق بعد مطراني صور وحلب ولكنهُ دعاهُ هنالك تمويهاً « مطران قلاية دمشق » ولديَّ انا كذلك صورة شهادة سابقة شهد بها رؤساء دير المخلص ودير يوحنا الصابغ على صحة انتخاب البطريرك اثناسيوس جوهر للمرة الاخيرة في ٢٤ نيسان سنة ١٧٨٨ في دير القديس انطونيوس الغرب وقد عُدّدت فيها اسماء الاساقفة المقترعين وهم احد عشر اسقفاً ذُكِر بينهم « كير ارميا مطران الشام » مما يدلّ دلالةً قطعيةً على ان هذا اللقب كان مسلماً لهُ معروفاً عند معظم الاساقفة ورجال الكهنوت باعتبارهِ راعياً شرعياً لكرسي القديس حنانيا الرسول

واصدق حجةٍ على قانونية تسقيف ارميا المذكور على دمشق نفسها ما ورد في كراسةٍ قديمة تعرف بدعوى المطران ارميا وُجدت في مطرانية صور وتتضمن نسخ الكتابات الآتية وهي اولاً « صورة انتخاب المطران

ارميا على دمشق من اهل دمشق قبل ارتسامهِ » مذيلة بتواقيع سبعة من كهنتها ونصارى ميدانها اجمع اجمالاً . ثانياً « صورة شهادة المطارنة في رسامة المطران ارميا » وقد تقدم ذكر اسمائهم وتاريخها ١١ كانون الاول سنة ١٧٦٣ . ثالثاً « صورة تجديد انتخاب اهالي دمشق كهنة وعوام في ١ كانون الثاني سنة ١٧٦٤ » وعليها امضاءات ٩ من الكهنة و ٤٤٦ من رجال ديوان الجمرك والميدان فضلاً عن بقية الشعب الميداني . واكثر الانساب المذكورة فيها محفوظة الى هذا الاوان سواء كان في دمشق وطنها الاصلي او في غيرها من المدن التي هاجر اليها الدماشقة في القطرين السوري والمصري ولاسيما في الاسكندرية والقاهرة كما هو معلوم من حال اشهر الأُسر فيهما اليوم . رابعاً صورة اقرار المطران ارميا ببطريركية السيد ثاوضوسيوس الدهان في ٣٠ ايار سنة ١٧٩٦ . وكان قبلاً من جملة الاساقفة المنكرين لها تعصباً للبطريرك اثناسيوس جوهر . خامساً منشور في التاريخ نفسهِ من البطريرك ثاوضوسيوس للمطران ارميا في حلّهِ من الحرم الذي كان قد أُطلق عليهِ وعلى سائر الاساقفة المتحزبين . سادساً اربع رسائل متبادلة بين المطران ارميا والبطريرك المذكور في المنافشة في مطرانية دمشق وحق التصرف بها . سابعاً « صورة مكتوب من قدسهِ جواب للدمشقيين بوجه العموم » وفيهِ طعن على المطران ارميا وقدح بكثلكتهِ . ثامناً شهادة السيد اثناسيوس جوهر في صحة رسامة المطران ارميا على دمشق وتبرئتهِ من مثالب البطريرك ثاوضوسيوس . تاسعاً واخيراً شهادة تسعة من اساقفة الكرسي الانطاكي في معنى الشهادة السابقة وذلك بتاريخ اول ايلول

سنة ١٧٧٥ وعليها تواقيعهم الاصلية واختام اكثرهم خلا واحداً منهم حكّ امضآؤهُ وختمهُ معاً . وقد كُتب فوق اول توقيع منها « هذه مختصر دعوة الاخ المطران كير ارميا اسقف دمشق ونشهد بصحتها » والكراسة باسرها مكتوبة بخط واحد وفي اثنائها بعض اخبار وشروح يظهر انها من قلم المطران ارميا نفسه حكى فيها ما وقع لهُ مع البطريرك ثاوضوسيوس الدهان وان كان في اوائلها ما يوهم ان الكاتب غيرهُ

وهذا نموذجٌ مما دار وقتئذٍ بينهُ وبين البطريرك المذكور اقتطفهُ من احدى رسائلهِ المشار اليها لمناسبتهِ هذا المقام وفيهِ دفاع حسن عن حق مطرانيتهِ واثبات بيّن لبطلان دعوى البطريركية على دمشق قال فيهِ ما نصهُ بالحرف

ايها السيد الكلي القداسة

ان السلطة سوآء كانت قيصرية او كنائسية تنتقل اما ذاتياً او عرضياً . قلت تنتقل ذاتياً وذلك بسلبها عن المكان الذي كانت فيهِ وبايجابها الى مكان آخر تنضاف او تنسب اليهِ كما جرى ذلك بسلطة كرسي افسس فانها سُلبت منهُ وأُعطيت الى كرسي قسطنطينية وذلك بامر واتفاق الكنيسة الجامعة في المجمع النيقاوي الاول . ومثل ذلك جرى في سلطة كرسي قيسرية فلسطين فقد سُلبت منهُ السلطة واعطيت لكرسي اورشليم باتفاق الكنيسة الجامعة في المجامع المسكونية الخلكيدوني والقسطنطيني الثاني ومع ذلك حُفظ كرامة ومجد الكرسيين وحقهما بثبات اقامة الاسقفية وثبات كرامتهما ومجدهما اي الافسسي والفلسطيني كما قرّر ذلك المجامع فعلى هذا المثال تنتقل السلطة ذاتياً اي برضى الكنيسة الجامعة والمجامع المسكونية

قلت تنتقل ثانياً عرضياً اي بانتقال ذي السلطان من مكان سلطتهِ الى مكان آخر بالسلطة ذاتها كقولكم كانتقال البطريرك من كرسيهِ الانطاكي الى حلب او

دمشق . فان السلطة البطريركية تنتقل معهُ بالصحبة حيثما كان والى اي مكان يتجه اليهِ في سلطتهِ . ومع ذلك صاحب الكرسي الزائر عندهُ البطرك لا تبطل سلطتهُ في كرسيهِ ولا تنقص اصلاً كما يعلم ذلك كل رئيس كنائسي والعادة العملية الجارية في الكنيسة كلها وحسب تحرير قوانين المجامع . بل لايزال الاسقف قائم حقهُ وسلطانهُ في كرسيهِ سواء كان البطرك زائر او ساكن عندهُ على نحو ما كان غير حاضر كما جرى ذلك مراراً عديدة وحتى في زماننا ودهرنا هذا الحاضر الذي نحن في نحو اواخرهِ فكيرلس الحلبي اذ كان في دمشق لم يعدم ناوفيطوس الصقزلي تصرفهُ بدمشق ومثل ذلك اثناسيوس الدمشقي اذ كان في حلب لم يعدم اسقف حلب تصرفهُ الاسقفي اصلاً . ومثل ذلك كيرلس السعيد الذكر اذ كان قاطن في ابرشية صيدا لم يسلب من اسقفها تصرفهُ الاسقفي . كما انكم انتم ايضاً قاطنون في ابرشية بيروت فلا يمكنكم ان تعدموا اسقفها الكائن الآن تصرفهُ الاسقفي وهذا لا يقدر ان ينكرهُ احد اي ان البطريرك لا يقدر ان يسلب حق اسقف من اسقفيتهِ ولا يقدر ان يبطل سلطتهُ عن رعيتهِ وينسبها لذاتهِ

فاذا تقرر هذا التقرير الصادق الشرعي الحق الذي لا يمكن لانسان طالب الاستقامة انكارهُ ولا بوجهٍ ما فمن ثم اناشدكم بالثالوث الاقدس ايها السيد الفايق شرفهُ ان لا تحمل ذمتكم ظلماً لسبب غرض زيد وعمرو لان قولكم ان دمشق هي اسقفيتكم فهذا لم يصح ولا على وجهٍ ما اصلاً لا على جهة انتقال السلطة ذاتيًّا ولا عرضيًّا . قلت لم تصح ذاتياً لكون السلطة البطركية لم تنتقل قط لا بامر مجمع مسكوني حتى ولا اقليمي حتى ولا بنوع ظلمي جاير من انطاكية الى دمشق . بل ولا يمكن ان تنتقل اصلاً ولا تسلب السلطة البطركية من كرسي انطاكية وتعطى لدمشق وهذا لا يحتاج الى برهان اعظم من هذا من ان البطرك يحرر ذاتهُ هكذا «البطريرك الانطاكي» ومن ثم يدعى اسقف انطاكية لا اسقف دمشق

قلت لم تصح عرضيًّا حتى ولو كنتم قاطنين بدمشق فلا يصح ان دمشق تدعى كرسيكم الخاص ولا يمكنكم ان تسلبوا منها حق الاسقفية والتصرف الاسقفي

كما سبق التقرير اذ هي كرسي حنانيا الرسول لا كرسي بطرس . فاذا كيف وانتم لستم بدمشق ولا بعتيدين ان تروها تدعون انها كرسيكم الخاص ورعيتكم الخاصة فهذا لا يمكنكم على وجه مستقيم ولا غير مستقيم انكم تدعون اسقف دمشق بغير ان تتركوا اسقفية انطاكية كرسي بطرس وتقبلون عوضهُ اسقفية دمشق كرسي حنانيا سواء كنت قاطناً او غير قاطن وحينئذٍ تحررون العبودية اسقف دمشق لا البطريرك الانطاكي .

فان قلتم كما زعمتم حسب مقالكم ان العادة متى جرت خمسة عشرة سنة صارت سنَّة فلا يلتزم احد بتركها . فنجيب اولاً ان العادة الظالمة او الردية فغير ممكن ان تصير سنَّة ولو مهما استطالت من السنين كما تفيدون بل يجب ابطالها وهدمها بموجب الناموس العدل كما علمنا المسيح بهدمهِ العادة الظالمة التي استقامت الوف من السنين اي عادة كثرة النسآء التي ابتدأت من لامخ حتى المسيح فهذا برهان الهي لا يمكن تكذيبهُ ولا تضليلهُ اي ان العادة الظالمة او الرديئة لا يمكن ان تصير ناموساً وسنة مستقيمة ولو مهما طال مداها بل الاولى ابطالها وهدمها لاننا اذا سلمنا لقولكم ان العادة الظالمة اذا استقامت مدةً صارت سنةً وناموساً فينتج من ذلك فسادات كثيرة وآراء شنعة مرذولة لا تعداد لها . منها الروسآء الكنايسيين الشرقيين في الاربع جهات الكنايسية لهم سالبين حق التقدم للكرسي الرسولي الروماني نحو يني عن ثلثماية سنة فعلى موجب قولكم ان العادة اذا استقامت بهذا المقدار من السنين صارت ناموساً وسنة فالروسآء المذكورين اذاً لا يلتزمون بترك رأيهم بانكارهم حق التقدم للحبر الروماني لان هذه وتلك سلطة كنايسية لا فرق بينهما اصلاً ولا يمكنكم ان تفصلوها بفصلٍ ما . ينتج ثانياً ان طريقة العرب السالبون اموال الناس لا يلتزمون ترك هذه العادة اذ انهم تمسكوا بها من آبآئهم ولهم الوف من السنين هذه سنتهم ومن هذه الطريقة يعيشون . ينتج ثالثاً ان العادة بالربا جارية في العالم منذ الوف من السنين فاذاً لا يخطي من يرابي ولا يلتزم المرابيون يردوا ما جمعوهُ من الربا ولهم جرا من هذه الفسادات . أرأيتم كيف ان العادة الظالمة الردية ولو مهما استطال

زمانها لا تصير سنة وناموساً بل الاولى هدمها وابطالها والا لكان المسيح قد قهر هو اميال الرجال وشراهة اللذة نحو كثرة النسآء باطلاً بابطالهِ زيجة كثرة النسآء بل وتكونوا قد ظلمتم اسقف بيروت اذ رسمتم اسقفاً على جُبيل اذ ان العادة لاسقف بيروت يرؤس جبيل اكثر من مايتين سنة

نجيب ثانياً عن قولكم ان كيرلس هكذا سلك وانتم تقفون اثرهُ فنقول اولاً كيف قدسكم توثرون ان تجعلوا هذا حجةً مبررة لكم امام الله ام امام الناس. فقدسكم يفيد ان الله لا يقضي لانسان على موجب هذا المقال ولا يمكن ان يبرّر انسان من الظلم لاتباعهِ رأي الظالم حتى ولا امام الناس تتبررون من الظلم . اقول ثانياً انكم لم تشآؤوا ان تسلكوا معي كما سلك كيرلس السعيد الذكر لان المذكور في الزمان الذي رسم بهِ مكاريوس على دمشق ما كان ممكن لا لمكاريوس الحلبي ولا لكيرلس ان يتصرفا بدمشق تصرفاً كنائسياً كما تعرفون ومع ذلك لم يتركهُ اصلاً بل اعطاهُ مكاناً يتصرف فيهِ تصرفاً كنائسياً شرعياً تصرف اسقفي وان منهُ يقوم بحياتهِ الجسدية . وكذلك ارتسم مكاريوس العجيمي على دمشق قد تعرفون انتم وغيركم انهُ كان قصدهُ ان يرسمهُ على صيدا لكي يصرفهُ بابرشية صيدا فاذ لم يمكنهُ ان يرسمهُ لعدم تنزيل مطرانها اغناتيوس رسمهُ على اسم دمشق واذ جرى ما جرى بينهما قد تعرفون ذلك ممن جرى ومن هو مصدر تلك القلاقل التي وصلت بعجاجها الى السمآء ومع ذلك ما تركهُ بلا رعية بل اعطاهُ عكا ليتصرف بها تصرف اسقفي شرعي وان يعيش منها . فاما قدسكم قد ابيتم ان تعوضون علي بل وحتى من المعاش الضروري لم تشآؤا ان تهبوهُ لي لأحيا بهِ . . . . . .

ويؤخذ من جواب البطريرك ثاوضوسيوس على هذه الرسالة ان المطران ارميا ذهب بعد ذلك او قبلاً الى قرى دمشق وتصرف فيها بحقوق اسقفيتهِ ولكنهُ لم يستطع قط دخول المدينة خوفاً من أذيّة المضطهدين . ولا يخفى ان هذا التصرف حجة اخرى على ثبات شرعية مطرانيتهِ بالواقع

ايضاً . وان يكن البطريرك ثاوضوسيوس قد انكرها عليه بالقول فقد عرفها لهُ بالفعل كل اساقفة الكرسي كما تقدم واقرّ لهُ بها كذلك خلفهُ البطريرك اثناسيوس جوهر كما يستدلّ صريحاً من توقيعه اسم « مطران الشام » في مجمعي سنة ١٧٨٨ و ١٧٩٠ المشار اليهما آنفاً . وكفى بمثل هذا الاعتراف الذي اجمعت عليهِ الكنيسة الانطاكية شاهداً لا يُرَدّ على كون دمشق كرسياً اسقفياً للقديس حنانيا الرسول حسبما سبق لنا اثبات ذلك ملياً وان دعوى البطريركية عليها دعوى جائرة لا يصححها الشرع والقانون ولا تشفع فيها التقليدات والرسوم

وللمطران عطا في هذا الجزء الثالث كما في سائر اجزآء الكتاب عدة اقوال وكتابات أُخَر اخطأ فيها وجه الحق والصواب وشحنها بضروب الوهم والتحريف . وانما استدركت منها امثلة يسيرة تبيَّن لي ان في التنبيه عليها فائدة لم تُسجَّل وجدّة لم تُبتذَل واعرضت عن كثيرٍ مما قدّرت ان الكلام فيهِ يكون مدعاةً للملل والسآمة او مجلبةً للخزي والفضيحة . ولذلك فلا بد من اطراح هذا الكتاب برمتهِ ومراجعة هذا التأليف من اصلهِ بأن يُعهد الاهتمام بهِ من جديد الى لجنةٍ خاصة تتولى على هيئتها مطالعة كل ما ورد عن تاريخ الامة الملكية وتقييد اخبار البطريركية الانطاكية واعمالها من الكتب الموثوق بها في اليونانية واللاتينية والفرنسوية والالمانية والعربية والسريانية فضلاً عن سائر اللغات وذلك على الترتيب والنمط الآتيين

اولاً . ان يبادَر الى انشآء مكتبة عامة للبطريركية تجمع فيها كل المصنفات والمخطوطات والمجاميع والكتابات والمنشورات المتعلقة بتاريخ الروم

الملكيين وطقوسهم وآدابهم ولا سيما المتبددة منها في زوايا الاديار وقلّيات الكنائس وخزائن بعض الخاصة وذلك قبل ان تغتال بقيتها ايدي الطمع والاهمال لقلة مبالاة اصحابها بها واستباحة بعض الرهبان التصرف بما يقع اليهم منها كما اتفق مراراً من بيع احد المخلصيين مختاراتٍ انتقاها من كتب الدير ما خلا المقطعات والادراج التي وزّعها حيث شاء . وتخلي بعض الشويريين عن كثير من مخطوطات الرهبانية التي صارت الى المكاتب الغريبة على ما يؤخذ من الحواشي المثبتة فيها باسماء مالكيها قديماً من الرهبان . ولا بد لضبط هذه المؤلفات والكتابات الطائفية والاحاطة بجميع ما بقي منها من تكليف بعض ذوي الاطلاع زيارةَ كل اديار الطائفة وكنائسها ومكاتبها الخاصة والبحث في جميع مشتملاتها فرداً فرداً واستنساخ كل ما يتعذر اقتناؤهُ من كتبها واوراقها والتنقيب معاً عن نظائرها في مكاتب الطوائف المجاورة ثم في خزائن المخطوطات الاوربية وعلى الخصوص المكتبة الڤاتيكانية وسجلاتها المعروفة بالسرّية

وقد سبق لنا في الكلام على الجدول الثالث من كتاب حوض الجداول ان تأريخ البطاركة الملكيين لا يجب ان يُقتصر فيهِ على الكاثوليكيين منهم فقط بل يعم كل من تولى السدة الانطاكية دون تمييز بينهم في المذهب والمشرب قبل الانفصال ليكون التاريخ شاملاً مستوفياً في بابهِ . ولذلك ينبغي حين انشاء المكتبة وجمع الآثار الملكية ان يهتمّ بتحصيل كل ما لرجال الدين والكتبة والمؤرخين في الطائفتين عامةً من الرسائل والاجوبة والمناشير والمجامع وسائر الكتابات والمصنفات على اختلاف نِحَل اصحابها وبقطع

النظر عن نسبتهم الى الكثلكة او عدمها نظير مؤلفات البطاركة دروثاوس الصابوني وافتيموس كرمة ومكاريوس الزعيم المعروف بالحلبي وتاريخي الشماس بولس الحلبي في اخبار البطاركة. الانطاكيين من عهد القديس بطرس الى زمن استيلاء الافرنج على انطاكية ثم من انتقال البطاركة من انطاكية الى ايام البطريرك مكاريوس الحلبي . وفي دمشق نسخة من الاول غير كاملة واما الثاني فلم يبقَ منهُ في هذا الاوان الا مختصر للمؤلف بولس نفسه في مقدمة كتابه سفرة البطريرك مكاريوس الى البلاد المسيحية المترجم الى اللغة الروسية بقلم وطنينا الاستاذ الفاضل الجنرال جرجي مرقص ويلحق بهذه المخطوطات سلسلة البطاركة الانطاكيين للخوري يوحنا جمعة سنة ١٧٥٦ والخوري ميخائيل بريك نحو سنة ١٧٦٧ واخبار الكثلكة في سورية لهُ ايضاً وهي المؤلفات الثلاثة التي وقف عليها الاسقف برفيريوس اوسبانسكي اثناء زيارتهِ للشرق سنة ١٨٥٠ ونشر ترجمتها في الروسية في مجلة اعمال كياف الاكليريكية سنة ١٨٧٤ و ١٨٧٥ . ويتصل بها ايضاً تاريخ الكثلكة لميخائيل الصباغ في اوائل القرن التاسع عشر المحفوظ في مكتبة الخواجا ديمتري شحادة على ما ورد وصفهُ في مجلة المنار في بيروت سنة ١٨٩٩ وديوان عجالة راكب الطريق لنعمة بن الخوري توما الحلبي الذي سبق تعريفهُ في الجزء الثاني من هذا الكتاب (ص ١٠٤ — ١٠٩) الى غير ذلك من المخطوطات والمجاميع التي لا سبيل الى استقصائها في هذا المقام

واما في الطائفة الكاثوليكية بعد الاستقلال فلم ألقَ احداً عُني بتدوين اخبار البطريركية الانطاكية فيما اتصل بي سوى المطران غريغوريوس عطا

في التأليف الذي تقدم انتقادهُ والتنبيه على قيمتهِ العلمية . والقس يوحنا العجيمي في كتابهِ التواريخ الملّية المشهور بالتختيكون وهو لا يكاد يختلف كثيراً عن كتاب الشرق المسيحي للاب لوكيان . غير ان فيما خلا هذين التأليفين عدة مجاميع وكراريس ومقطعات واوراق شتى في مسائل مفردة تلقى متفرقةً في الاديار والمكاتب ويمكن تعليق جملة فوائد وايضاحات عنها وتصحيح كثير من المزاعم الشائعة دونها . واوفر منها عائدةً سجلات الرهبانيتين المخلصية والشويرية لاشتمالهما على تراجم الرهبان وبيان اهم اعمالهم في الديارات والكنائس ومعلوم انهم هم الذين استقلوا في الغالب بتدبير الطائفة ورعايتها وتولوا سياسة البطريركية والاسقفيات منذ القرن الثامن عشر الى هذا العهد ومن ثم كان كل ما سُجّل من انبآئهم ووقائعهم كانهُ تسجيل بعينهِ لانبآء البطريركية ووقائعها

ثانياً . ان تُراجَع كتابات المرسلين اللاتين كالفرنسيسكان والكبوشيين والكرمليين والدومينيكان واليسوعيين واسفار المؤرخين الثقات من الغربيين والشرقيين ويُقتبَس منها كل ما لهُ علاقة بتأريخ الملكيين بعد استثباتهِ وتمحيصهِ ويُقيَّد عند الحاجة بلغتهِ الاصلية مع تعريبهِ . وفي معجم اللاهوت الكاثوليكي الجاري طبعهُ بادارة الاب ڤاكان مقالة عن انطاكية للاب سيمآوُن ڤيلياي (ص ١٣٩٩ — ١٤٢٦) جمع فيها اسمآء كثير من الكتب الغربية التي تجدر مطالعتها بالمشتغل بتأريخ الكرسي الانطاكي ويضاف اليها من الروسية ايضاً بضعة مؤلفات لا تخلو من الاهمية كسلسلة البطاركة الانطاكيين من افوديوس الى زمن ايروثيوس (١٨٥٠) للاسقف السابق

الذكر برفيريوس اوسبانسكي وغيره من الكتب التاريخية التي يوقف عليها بعد البحث والاستقراء

ثالثاً . ان تُجمَع نصوص كل البرآءات والرسائل العامة والخاصة والاحكام والقرارات وسائر النبذ والكتابات الصادرة الى هذا الاوان من الكرسي الروماني بوجه الاجمال والمتعلقة بالكرسي الانطاكي والطائفة الملكية وتطبع بلغتها الاصلية مرتبة في الذكر حسب تواريخها مع تعريبها بغاية الضبط والتدقيق

رابعاً . ان تُنشَر كل العهود السلطانية القديمة والفرمانات الشاهانية والاوامر والاحكام الرسمية والفتاوى والحجج الشرعية المختصة بالطائفة الملكية وكنائسها واديارها وتثبت حرفيتها دون ادنى تصرف في تعريب ما ليس بعربي منها

خامساً . ان تُنسَخ عن سجلات الوزارتين الخارجية والتجارية في فرنسا والنمسا كل التقارير والقِفَر والرسائل الواردة من السفرآء والقناصل ومَن دونهم في الكلام عن أُمة الروم الملكيين وتفصيل بعض انبآئها وحوادثها ويلخَّص عنها ما تحقق فيهِ الفائدة والحجة التاريخية

سادساً . ان تُدوَّن باختصار اخبار المجامع العامة والخاصة التي شاركت فيها الكنيسة الانطاكية سائر الكنائس المقدسة وتُسرَد في كل منها اسمآء الاساقفة والكهنة ورؤسآء الديارات الذين شهدوها ونابوا فيها او كاتبوا في صددها بتوقيعاتهم الاصلية . وتُذكَر بعد ذلك بالتفصيل وعلى الوجه نفسهِ اعمال المجامع الاقليمية التي التأمت ضمن ابرشيات الكرسي الانطاكي

بعبارتها الحرفية مع الاشارة الى الكاثوليكية المثبتة منها او خلافها وتُنشَر في الانتخابية منها صكوك الانتخابات والمناشير البطريركية مذيلةً بامضآءات المنتخبين واختامهم ومشفوعةً بشهادات الشهود القانونيين

سابعاً . ان تُشرَح بالاسهاب حكايات الاضطهادات والمظالم التي اعتُدي بها في القرنين الماضيين على الطائفة الكاثوليكية ولا سيما في دمشق وحلب وتورد فيها روايات الشهود وتفصيل المرافعات ونسخ المراسلات والعرائض مأخوذةً عن أوثق المصادر ككتاب عجالة راكب الطريق السابق ذكرهُ ورسائل كاثوليكي دمشق للاب سابا الكاتب وبعض تعليقات في هذا الباب للقس انطون بولاد وغيرهِ من رواة هذه الحوادث . ويُضم اليها كذلك ايضاح مسئلة القلنسوة سنة ١٨٣٧ على عهد الطيب الذكر البطريرك مكسيموس مظلوم مرويةً بجميع ماجرياتها واوراقها ومخاطباتها الرسمية كما توجد مستوعبةً في كراسةٍ خطية لاتخلو ان تكون من جمع البطريرك المذكور نفسهِ كانت محفوظةً بين كتب نسيبهِ الخوري توما مظلوم

ثامناً . ان يُكلَّف رؤسآء الرهبانيات المخلصية والشويرية البلدية والحلبية بالسعي في وضع تاريخ شامل للاديار والرهبانات يُبحَث فيهِ عن اصل تأسيسها ونشأتها وتراجم الرؤسآء والاخيار والمحسنين والفضلآء الذين ظهروا منها مرويةً عن السجلات والآثار المحفوظة بعد معارضتها وتحقيقها اذ كان قسمٌ منها مُملَى بلسان التحزب والضغينة مخطوطاً بمداد الاطرآء والمبالغة لاعتياد السواد الاعظم من الكتبة والرهبان كتمان الحقيقة التاريخية والاجتهاد بإلباسها ثوباً من التزيين والتمويه كما فعل الاب كيرلس الحداد في

ما دوّنهُ من اخبار الرهبنة المخلصية . وكان قد وقعت اليهِ عدة اوراق ونبذ خطية قديمة لم يحسن نقلها والاستشهاد بها فتصرف في اختصارها حسبما تمثل لخاطرهِ وشحن تأليفهُ تقريظاً ومدحاً لكل من ترجمهُ من الرهبان ورجال الدين بحيث ان من وقف على كتابهِ يأخذهُ العجب من وفرة ما انبتتهُ الاديار المخلصية في هذه الاصقاع من افراد الدهر واعلام القداسة والبرّ . وقد طوى كشحاً عن كثير من الحوادث المشهورة في الرهبانية واهمها ما اضرمهُ التحزب الجنسي فيها حيناً بعد حين من نيران الشقاق والفتن مما يجب ان يُفرَد لهُ في سياقة اعمالها فصلٌ خاص يُستوفى فيهِ بيان الاضرار والمِحَن والخسائر التي ألحقها هذا التعصب المشؤوم بالاديار والكنائس . ومن المخطوطات الضالة والحرية في هذا الباب بالنشدان والاسترشاد كتاب الخلاصة الوضية في تاريخ الرهبنة المخلصية للقس انطون بولاد وتاريخ الرهبنات في لبنان للقس حنانيا منير الشويري

تاسعاً . ان يُفرَد تأليف خاص لجغرافية الكرسي الانطاكي توصف فيهِ حدودهُ واقاليمهُ الاصلية باقسامها ومشتملاتها مع التنبيه على ما تقلبت فيهِ من الاطوار وما طرأ عليها من التغيير والنقصان والاشارة الى اسمائها القديمة والحديثة وتعيين مواقعها وآثارها بما يمكن من التطبيق والدقة ويُختم اخيراً ببيان ما استقرت عليهِ احوال البطريركية الملكية لهذا العهد وتقويم ما يتعلق بها في الكراسي الثلاثة من الاعمال والابرشيات بحواضرها وقراها ومزارعها وكنائسها واديارها وعدد النفوس في كل منها ومقدار النازحين من رعاياها . ولا بد ايضاً لتتميم الفائدة من الحاق ما تقدم بخارطة لكل

طور من اطوار البطريركية تعين على تقرير المراد من هذه الشروح وتزيد في الجلاء والوضوح

عاشراً . ان يُبحث بعد المطالعة والتدقيق اولاً في تاريخ طقوس الكنيسة الانطاكية وبيان ماهية كل منها ومنشاهِ . ثانياً في اللغات التي كانت تؤدَّى بها هذه الطقوس المختلفة في الكنائس على تباين احوالها ومواقعها . ثالثاً في اصل الروم الملكيين وجنسيتهم . ويجب ان يُوكَل هذا البحث خاصةً الى اناس من العلماء معروفين بالانصاف والاخلاص متجردين عن كل أَثَرَةٍ او تعصب سخيف لئلا يصيب كلامهم فيهِ ما اصاب كلام غالب من تصدّى لهذا الموضوع في هذا العهد من انصار اليونانية واحزاب السريانية لغلبة الهوى والغلوّ على اكثر تقريراتهم واستدلالاتهم وتعمدهم منها غير الحقيقة العلمية المحضة . ولا غنى قبل الخوض في هذا المطلب عن مراجعة كتابات الآباء اليونانيين وتصفح كل الكتب الطقسية المنسوبة للروم الملكيين وعلى الخصوص المحفوظة اليوم في المكاتب الاوربية

حادي عشر . ان تُدوَّن سِيَر كل القديسين والشهداء والابرار والنساك الذين نبغوا في الكنيسة الانطاكية وحدها منقولةً عن اوثق المصادر واثبتها مع الاشارة الى هذه المآخذ باسماء مؤلفيها وارقام صفحاتها ايضاً عند الاقتضاء

ثاني عشر . ان يُجتهد بعد التنقيب واستقراء الآثار في وضع تراجم مطولة لكل من المؤلفين والعلماء والادباء والشعراء الذين اشتهروا بين الملكيين وكتبوا في احدى اللغات الشرقية او الغربية وتعداد اسماء تصانيفهم

ومواضيع كتاباتهم والتنبيه على ما كان منها مطبوعاً او خطياً وتعيين محل طبعهِ او حفظهِ وايراد نُبذ منها او شروح عنها تكون كافية لتعريف مكانتهم والاستدلال على مقدار خدمتهم الادبية . ولا يخفى على احد ما لمثل هذا التأليف الشاق من الفائدة والاهمية الكبرى ليس فقط في تاريخ الروم الملكيين ولكن في تاريخ الآداب النصرانية ايضاً في هذه الديار اذ كان النابغون منهم ولا سيما في الفرقة الكاثوليكية هم في الحقيقة نخبة الشعراء والكتاب المبرّزون في مضمار البراعة والفضل واعيان العلماء والمحققين المتميزون بالذكاء والنبل وكفى بمكان الأُسرة اليازجية بينهم دليلاً على هذه المنزلة ناطقاً بافصح بيان وحجةً قاطعةً بهذه المزية لا تُكافأ ولا تُرجَح في ميزان

ومتى توفر للّجنة استيفاء هذه الخطة بجميع اصولها وفروعها وتهيأ لها استكمال هذه الشروط واشباهها مما يدلها عليهِ تكرار البحث والمزاولة ويلقّنهُ اياها خبرة الدرس والمطالعة تستطيع حينئذٍ لا قبلاً ان تستعين بما اجتمع لديها من المواد والحجج والتعليقات والمصنفات الخاصة على وضع تاريخ عام للأُمة الملكية وجمع سلسلة تامة للبطاركة والاساقفة في كلٍّ من كنائس الكرسي الانطاكي مستندةً في تقرير ما تقرّرهُ على ما سبق تفصيلهُ في المؤلفات التمهيدية مع الايماء الى مأخذهِ منها ورد المطالع الراغب في الاستزادة الى المطولات المتقدمة . وكل تأليف في تأريخ الطائفة لا يُجرَى فيهِ على هذه الطريقة ولا يتم بناؤهُ على هذا الاساس يكون تأليفاً أبتر ناقصاً لا يسلم من الطعن والانتقاد ولا يجدر بالثقة والاعتماد . انتهى

اصلاح غلط

صفحة	سطر	غلط	صوابهُ
١٤	١٤	الاديبات المنشورة	الاديبات المنثورة
١٥	١٥	ابن حسن	بن حسن
٢٥	١٨	الاديبات المنشورة	الاديبات المنثورة
٣١	٩	ابي المعلى	ابي المعالي
٤٧	١١	ويبخرون بهِ	ويتبخرون بهِ
٤٨	١	رقم ٥٧	٥٨
٦٥	٧	روح الارواح	رواح الارواح
٦٥	١٥	علي العزي	علي الغزي
٦٨	١٢	المنتقى في	المنتقى من
٧١	٢	القوشنجي	القوشجي
٧٢	١٠	مواهب الحبيب	مواهب المجيب
٧٣	١٠	فيهِ ٢ً	فيهِ ١ً
٧٣	١٤	البازي	البارزي
٧٧	١٣	عبدالحليم	عبدالعليم
٧٩	٢١	المكتبة العمومية	المكتبة العمرية
٨٠	١٢	المعافي	المعافى
٨٣	١٠	علي بن الكافي	علي بن عبدالكافي
٨٤	١٢	اتحاد الاخصّا	اتحاف الاخصّا
٨٦	١٩	العظلمي	العظمي
٨٩	٥	مبارك شاه علي حكمة	مبارك شاه على حكمة
٩٤	١٥	فلّت	قلّت
١٠٢	٥	البطريرك مكاريوس الحلبي	البطريرك افتيموس كرمة

obeikandl.com

صفحة	سطر	غلط	صوابه
١٠٣و١١٦	١ و٣	سنة ١٦٤٧	سنة ١٦٤٨
١٠٣	١٤	كان ينتمي	كان ينتمي
١١٧	١٠	واقرة	وافرة
١٢٣	١٥	سنة ١٦٤٧	سنة ١٦٤٨
١٣٠	١٢و١٦و١٨و٢٠	نجمة	بخمة
١٥٤	١٥	في بليان	في ديمان
١٥٧	١٥	ملاتيوس كرم	ملاتيوس كرمة
١٥٨	١٩	(من يبرد)	(من يبرود)
١٦٠	١٤	ما اخذ وراًى	ما اخذ راًى
١٦٧	٣	اوسعها رفعةً	اوسعها رقعةً
١٦٨	٧	القديسين جاورجيوس	القديس جاورجيوس
١٧٥	٩	كان يتبوّأُه	كان يتبوّأُ مثلهُ
١٧٧	١	احداهما	احدهما
١٨٠	١٦	الف وستماية وثلاثة	الف وستماية وثلاثة وثلاثين
٢٠٠	٩	روسيتاوس	دوسيتاوس
٢١١	١٩	بطرير	بطريرك
٢٢٢	١٢	الأُديْسِط	الا وَيْسِط
٢٢٢	١٤	ثنيَّة الفار	ثنيَّة الغار
٢٤٣	١٥	الرهبانات	الرهبانيات

obeikandl.com